عُدة النصر والفتح المبين في شخصية

خاتم النبيين



بقلم

عبد البديع عبد السميع كفافي



عدة النصر والفتح المبين
في شخصية خاتم النبيين
صلى الله عليه وسلم

عُدّة النصر والفتح المبين

في شخصية خاتم النبيين

صلى الله عليه وسلم

بقلم

عبد البديع عبد السميع كفافي



عُدة النصر والفتح المبين
في شخصية خاتم النبيين ﷺ

عبد البديع عبد السميع

الكتـــاب: عُدة النصر والفتح المبين
في شخصية خاتم النبيين ﷺ
المـؤلـف: عبد البديع عبد السميع
تاريخ النشر: ٢٠١١ م
رقم الإيداع: ٢٢٦٩٢ / ٢٠١٠
الترقيم الدولي: I.S.B.N 978-977-463-086- 6

الناشـــر:
دار غريب للطباعة والنشر والتوزيع
الإدارة والمطابع:
١٢ شارع نوبار لاظوغلي (القاهرة)
تليفون: ٠٠٢٠٢٢٧٩٤٢٠٧٩ فاكس: ٠٠٢٠٢٢٧٩٥٤٢٢٤
التوزيـــع:
٣ شارع كامل صدقي الفجالة - القاهرة
تليفون: ٠٠٢٠٢٢٥٩١٧٩٥٩
www.dargharceb.com

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد النبي العربي الأمين، وعلى آله وصحبه الطيبين الطاهرين، وعلى التابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد

قال الله سبحانه وتعالى في كتابه الكريم، وقرآنه العظيم، وكلامه القديم في سورة (ص):

﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّن طِينٍ (٧١) فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ (٧٢) فَسَجَدَ الْمَلائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ (٧٣) إِلاَّ إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ (٧٤) قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ (٧٥) قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ (٧٦) قَالَ فَاخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ (٧٧) وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِي إِلَىٰ يَوْمِ الدِّينِ (٧٨) قَالَ رَبِّ فَأَنظِرْنِي إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ (٧٩) قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنظَرِينَ (٨٠) إِلَىٰ يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ (٨١) قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٢) إِلاَّ عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ (٨٣) قَالَ فَالْحَقُّ وَالْحَقَّ أَقُولُ (٨٤) لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنكَ وَمِمَّن تَبِعَكَ مِنْهُمْ أَجْمَعِينَ (٨٥) قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ (٨٦) إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ (٨٧) وَلَتَعْلَمُنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ﴾ [سورة ص: ٧١-٨٨].

وفي هذه الآيات البينات حسم الله سبحانه وتعالى قضية الأخلاق التي أتعبت الإنسان في مسيرته منذ نزل إلى الأرض، وأجهدت الحكماء، والفلاسفة، والمصلحين على مدى الأزمان، وهم يتطلعون إلى الأفضل،

وتحلق أرواحهم في سماء الأخلاق، والمثل العليا، راغبين رغبة أكيدةً في تحقيق الكمال الخُلقي والسلوك الحميد.

فهذه الآيات وضعت يد الإنسان على طبيعته، وألقت له الأضواء كاملة على حقيقته أي أنها عرفته نفسه. وبذلك تكون قد حلّت له الجانب الأعظم من المشكلة ومكّنته من حل الجانب الباقي منها في ضوء المعرفة التي حصّلها منها.

فالآية الأولى من هذه الآيات الشريفة عرّفت الإنسان على نفسه أن الله خلقه من طين، ثم نفخ فيه من روحه: أي أن طبيعة الإنسان تتكون من عنصرين: الجسم، والروح؛ والجسم مادة والروح معنى؛ لأنها من أمر الله، ولا يتم إصلاح هذا الإنسان إلا بالعناية بالجسم والروح مجتمعين.

ولا ينبغي أن نركز في مسيرتنا الحضارية على الجانب المادي فقط، ونهمل الجانب الروحي، صحيح أن العناية بالجانب المادي تعطي للإنسان الطعام، والشراب، والمأوى، والرعاية الطبية، وباختصار تشبع حاجاته المادية، وتمكنه من الحصول على المتعة الحسية بدرجة مكتملة، ولكن كل ذلك لا يكفي في بناء شخصيته، ليكون نموذجًا للمواطن الصالح الذي يسعد به المجتمع، وتزدهر به الحياة؛ ولأنه في هذه الحالة يفتقد أهم مقومات السعادة وهي الأخلاق.

وعلى ذلك فالجانب الأخلاقي هو الصرح المتين الذي تقوم عليه الحضارة، ويحدث بالبناء عليه التقدم والازدهار.

إذن فالسلوك المادي يتجلّى في الطعام، والشراب، واللباس، والمتعة الجسدية، ولكن السلوك الروحي يتجلّى في الأخلاق الحميدة، والتمسك بالفضيلة، والتجنب للرذيلة، والقرآن الكريم يلفت نظرنا إلى حقيقة على

جانب عظيم من الخطورة، وهي أن الكمال الأخلاقي هو السياج الذي ينشأ فيه العلم ويصان به العمل الصالح في قوله لسيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم. الآية رقم (٤) من سورة القلم: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] .

فالقارئ لهذه الآية الكريمة، والمتأمل في سيرته العطرة، يجد أنه عليه الصلاة والسلام قد بلّغ الإسلام وحبّب الناس فيه قبل أن يبعث بالحق نبيًا ورسولاً، حيث كان يتحلى بمكارم الأخلاق، ومنها الصدق، والأمانة، حتى اشتهر بهما بين قومه، فإذا ذكر أحد منهم الأمين فإنهم جميعًا يعلمون أنه يقصد بذلك (محمدًا) عليه الصلاة والسلام.

فلّما بعثه الله بالحق نبيًا ورسولاً ودعا إلى الإسلام صادف ذلك تصديقًا عاجلاً وسريعًا من العقلاء من القوم وأولهم سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه الذي صدقه بمجرد سماعه عنه، وقال كلمته المشهورة: «إنْ كَانَ قَدْ قَالَ فَقَدْ صَدَقَ» ويظهر هذا البلاغ من جانب سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم للإسلام قبل أن يبعث نبيًا ورسولاً في هذه الواقعة الرائعة الخصبة بما فيها من الوفاء، وصدق الفطرة، وذكاء القلب، ورشد العقل، ورجاحة الرأي، ونور اليقين الذي ظهر من أم المؤمنين الطاهرة الذكية سيدتنا خديجة بنت خويلد رضي الله عنها وأرضاها: فقد روي عنها كلام لا يصدر إلا عن ذكاء خارق، وفكر ثاقب، وحب عميق، عندما دخل عليها سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم عقب نزول الوحي عليه، وأبدى لها مخاوفه قائلاً: «لقد خَشيتُ على نَفْسي»، فقالت له: «كلا!! والله ما يُخزيك الله أبدًا، إنك لتصل الرَّحِمَ، وتَحْمِلُ الكَلَ، وتُكْسِبُ المعدوم، وتقري الضيفَ، وتعينُ على نوائبِ الدهرِ، وتصدقُ الحديثَ، وتؤدي الأمانةَ».

مـزيج من سَنَيِّ الخـصال، وكـريم الخلال، انسـكب في قلب أم المؤمنين، وتدفق في وجـدانها، لينقش علـى ذاكرتهـا نتاجًـا طيبًـا لمعاملة أشـرف الخلق سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصـحبه وسلم لها ولغيرها، فباحت به في لحظة إلهام من الـله سبحانه وتعالى لها، يثبت الله بهـا فؤاد نبيه ورسولـه عليه الصـلاة والسلام، وتنبئ عن حـقيـقة كـانت تعتـمل في قلبـها الطاهر، ويجيش بهـا وجدانها الْمُلهم، هذه الحـقيقة هي أنهـا كانت تنتظر هذه السـاعة التـي فيهـا يبعث الله سبـحانه وتعالـى زوجها الحـبيب نبيًـا ورسولاً، ساعة تجـتمع فيهـا النبوة له مع التصـديق منها فيلتقـيان فلا يدري أيهمـا سبق الآخر، النبوة أو التصديق!!

إن أم المؤمنين قرأت النبـوة في سلوك سيدنا رسـول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم في معاملاته لها وللآخرين قبل أن يبشره جبريل عليـه السلام بهـا رضي الله تعالى عن أم المؤمنين خـديجة وجـزاها الله خـير الجزاء وأوفاه.

وبينت هذه الآيات أيضًـا الإلزام والالتـزام بمكارم الأخـلاق في أمـر الله سبـحانه وتعالى للمـلائكة بالسجـود لآدم عليه السلام، وامـتثالهم لأمـره عز وجل، ثـم وضّح مساوئ الأخلاق في أقوال إبليس وأفـعاله، من عصيانه لأمر الله تعـالى وكِبره، وغُـروره وحسـده لآدم عليه السلام. وفي آخـر الآيات بيّن الجـزاء الذي أوقعـه على إبليس والعـقـوبة التي أنزلهـا به من طرده من الجنة، ولعنتـه له إلى يوم الدين، عندمـا تنكّر للأخـلاق الحسنـة، وتسربل بالأخـلاق السيئة، من الكبر والغُرور، والحقد والحسد، ويشهد بذلك ما جاء في قول الله عــــز وجل: ﴿قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٣].

ومن هنا نرى بحق أن الله عـز وجل، أقام أُسس المجتـمع الإسلامي على صرحي الأخـلاق وهما القـرآن الكريم، والنبي محـمد صلى الله تعـالى عليه وعلى آله وصحـبه وسلم. وهذا يفسر ما قـالته أم المؤمنين سيدتنا عـائشة بنت الصديق أبي بكر ﵄ عندمـا سُئلت عن أخلاق سيـدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلـم، قالت: «كان خُلُقُه القُرآن».

فإذا تدبرنا قول الله عز وجل في الآية رقم (٢١) من سورة الأحزاب:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب: ٢١] .

إذا تدبرنا هذه الآية لـعلمنا أن الله سـبحـانه وتعـالى يـأمـرنا أن نتـخلق بأخلاق سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم؛ لأنه استودع شـخـصيته مكـارم الأخلاق باعـتبـارها الأسـاس المتين للمـجتـمع الإسلامي، مجتمع الفـضيلة والضمان الكامل لنجاح مسيرته، متـمتعًا بالسلام الاجتماعي، وينعم فيه الفرد بالسكينة والسلام النفسي.

وفي عـهد سيدنا رسـول الله صلى الله تعـالى عليه وعلى آله وصـحبـه وسلم، وسادتنا الخلفـاء الراشدين المهديين أبي بكـر، وعمر، وعثـمان، وعلي رضي الله عنهم، كان القـرآن الكريم ينزل من المجتـمع الإسلامي منزلة الروح من الجسد، فكان يحـيا حياة طيبـة آمنة مستقرة، ومـا دخل المسلمون أرضًا إلا اخـضرت تحت أقـدامهم، وبنـوا فيـها المسـاجد وهـوت إليهم قلوب أهلهـا، وامـتـلأت هذه القلوب بأنوار الإسـلام، وانسـابت على جـوارحهم أخـلاقـه سلوكًا حـميدًا يعطر الآفـاق، ويضيء أركان الدنيا، واحـتشد الناس فيـها في مسيـرة مهيبـة، وموكب مضيء قاصـدين وجه الله الكريم، وإشاعة الخـير في أرض الوجود، وهـم يسمعون الحق جل وعلا يقول لهم:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ارْكَعُوا وَاسْجُدُوا وَاعْبُدُوا رَبَّكُمْ وَافْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٧٧) وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ فَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ [الحج: ٧٧، ٧٨].

على صرح الأخلاق الأشم قام المجتمع الإسلامي فأصبح بها سيد المجتمعات ومعلمها، وقدوتها، وكانت مكارم الأخلاق التي تحلّى بها المسلمون في كل زمان ومكان سببًا في انتشار الإسلام، واتساع رقعته، وكثرة المعتنقين له، عندما تعامل المسلمون مع الناس فوجد الناس فيهم القدوة الطيبة، والأسوة الحسنة، وبعبارة أخرى اكتشفوا نور الإسلام يسطع على جوارحهم سلوكًا طيبًا، وعملاً صالحًا، وقولاً كريمًا، وما زال حال المسلمين كذلك، إلى أن أظل أرض الإسلام حين من الدهر تراجعت فيه الأخلاق الحميدة، وانطفأت مصابيح المثل العليا، واقتلعت من الأرض أشجار القيم الوارفة الظلال، وباختصار:

﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الروم: ٤١].

وبتراجع الأخلاق تفشى الفساد، وتلبدت سماء المجتمع الإسلامي بسحب التلوث الأخلاقي، وصارت الغلبة للظالمين، والمفسدين من أهل الضلال والبغي، وأما أنصار الفضيلة، ومكارم الأخلاق فقد شعروا بقلتهم، وضعف صوتهم، فانكفأوا على أنفسهم، وآووا إلى بيوتهم يبتغون النجاة من هذه الفتن الضارية وحتى لا تحرقهم تلك الحمم المنطلقة من مواقد القهر والظلم والطغيان.

وفي هذه الحقبة حلّ الجبن محل الشجاعة، وحلَّ الكذب مكان الصدق، والطغيان مكان العدل، والحمق مكان الحكمة، والقسوة مكان الرحمة، والجهل مكان الحلم، والنفاق مكان الإيمان.

وبذلك تَصدَّر السفهاء المجالس، واعتلى كراسي القيادة أردأ الناس خلقًا، فهان المسلمون على أعداءهم، فوطأت أقدامهم البلاد، فأظهروا فيها الفساد، وأذلوا فيها العباد، وأصبح الحق باطلاً، والباطل حقًا، وزلزلت القيم زلزالها، وتحطمت المثل العليا، وذهبت أدراج الرياح.

وجثم الاستعمار على صدر مصر، ونشب أظفاره في جسدها الغض، واستنزف خيراتها ورحلها إلى بلاده، تاركين المصريين يعانون شظف العيش، ويصلون نار الأعداء الثلاثة - الفقر، والجهل والمرض - ردحًا طويلاً من الزمن خلاله جلجلت أصوات أبنائها الأحرار بكلمات الحق تخترق عظام الناس، وتمس شغاف القلوب، وتبعث في أوصال مصر أنوار الحياة، وتدفقت الدماء الساخنة في العروق، وهبَّ الناس من الرقاد على صوت عبدالله النديم، والشيخ الإمام محمد عبده، وجمال الدين الأفغاني، ومصطفى كامل، ومحمد فريد، وسعد زغلول، كل في وقته، وكل فيما هيأته له ملكاته وقدراته، وما وفقه الله له من جلائل الأعمال.

وقامت نهضة في مصر بدأت تؤتي ثمارها في العقد الثاني من القرن العشرين، وتجاوبت أصوات المخلصين من دعاة الإصلاح، واجتمعت على تأسيس الدولة الحديثة على صرحي العلم، والأخلاق، وتحالف من أجل تحقيق ذلك رجال الفكر والأدب، ورجال السياسة، والشعراء، متمسكين بأن هذا الشعب لا تقوم له قائمة إلا على هذين الصرحين العظيمين مجتمعين لا يغني أحدهما عن الآخر.

وقد أكـرم الله مصـر بكوكبـة من أبنائها الأفـذاذ من العلمـاء، والأدباء، ورجال الفكر الذين توفر فيهم الولاء لها، والإخلاص في حبها، فقدموا جهودهـم الخلاقة التي ذابت كلها في بوتقة الحب الكبير لها، فجادت قرائحهم بأعمال تظل خالدة أبد الدهر، معينًا صافيًـا رائعًا، وسلسبـيلاً نقيًـا تتزود به الأجيـال، ويقودها دائمًـا إلى النهوض، ويأخذ بأيديها إلى المعالي، وتتخطى بها صعاب الكفـاح، وتقتحم بها عقبات النضال، وتخلص بهـا إلى مروج النجـاح، وبساتين التقـدم، وحدائق الفـلاح، حيث الأشـجار الباسقة تزدهر فروعها بيانع الأزهار، وتتدلى من أغصانها طيبات الثمار.

أما الشعراء منهم فـإنهم قد شَدَوْا بحب مصر في قصائد عـصماء، تدعو إلى دعم صرحي العلم، والأخلاق ممجدين إياهما، حاثين على التمسك بهما، وتربية النشء على قواعدهما.

ولأمير الشعراء أحمد شوقي:

١- من توجيهاته في السلوك الفردي:

صـلاح أمـرك للأخـلاق مـرجـعـة
فـقّـوم النفس بـالأخـلاق تـسـتـقـيم

النـفس من خـيـرها في خـيـر عـافـيـة
والـنفس من شـرها في مـرتع وخـم

وله في الإرشاد إلى الأخلاق الكريمة ما يقرب من سبعين قصيدة كل منها في صورة حكاية موضوعها خلق من الأخلاق يرشد الفرد إليه.

٢- من توجيهاته للسلوك الجماعي: في قصيدة ذكر المولد:

جنيت بـروضـهـا وردًا وشـوكًـا
وذقت بكـأسـهـا شـهـدًا وصـابا

فلم أرَ غير حكم الله حكمًا
ولم أرَ دون باب الله بابا
ولا عظَمت في الأشياء إلا
صحيح العلم والأدب اللبابا
ولا كرمت إلا وجه حر
يقلد قومه المنن الرغابا
ولم أرَ مثل جمع المال داء
ولا مثل البخيل به مصابا
فلا تقتلك شهوته وزنها
كما تزن الطعام أو الشرابا
ولولا البخل لم يهلك فريق
على الأقدار تلقاهم غضابا

وأما شاعر النيل حافظ بك إبراهيم، فقد صرح بالأخلاق يرغب فيها أبناء مصر، فقال في رائعته الخالدة: مصر تتحدث عن نفسها:

وقد وعدت العلا بكل أبيّ من رجالي
فانجزوا اليوم وعدي
أمهروها بالروح فهي عروس
تشنأ المهر من عروض ونقد
وردوا بها مناهل العز حتى
يُخطب المجد في المجرة ودي

وارفعوا دولتي على العلم والأخلاق
فالعلم وحده ليس بجدي
وتواصوا بالصبر فالصبر إن
فارق قومًا فما له من مسدّ
خلق الصبر وحده نصر القوم
وأغنى عن اختراع وعدّ
شهدوا حومة الوغى بنفوس
صابرات وأوجه.. غير ربد
فمحا الصبر آية العلم في الحرب
وانحى على القوي.. الأشد

وأما العلماء والمفكرون الذين طووا قلوبهم على حب لله عز وجل، وحب لسيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وحب لوطننا الحبيب، فقد انبروا يحملون القلم، ويبذلون الجهد، ويطوفون بالأرض ينقبون ويبحثون عن كنوز الأخلاق الطيبة، والسلوك الحسن، وانتهوا في بحوثهم ورسائلهم إلى أن هذه الكنوز التي قضوا عمرهم ينشدونها، ويعقدون عليها الآمال في إصلاح الأمة هي منظومة نظمًا لؤلؤيًا، ومعقودة عقدًا عسجديًا بين دفتي المصحف الشريف قرآنًا عربيًا غير ذي عوج، وهو النور المبين، وحبل الله المتين.

ويتقدم هذا الموكب المهيب من العلماء والمفكرين من أبناء مصر البررة العالم الجليل، والإمام المتفرد، شيخ الشيوخ في عصره الإمام الدكتور محمد عبد الله دراز، له من الله سبحانه وتعالى الرحمة والرضوان، فقد عاد من بعثته في جامعة السوربون في فرنسا ومعه سفر من الأسفار العظيمة هو كتاب

«دستور الأخلاق في القرآن» وهو الرسالة الأساسية التي نال بها درجة دكتوراه الدولة من السوربون. وقد طبعت النسخة الفرنسية على حساب مشيخة الأزهر الشريف عام ١٩٥٠م، وقام بتعريبه وتحقيق نصوصه والتعليق عليه الأستاذ الدكتور / عبد الصبور شاهين، وقام بمراجعته الأستاذ الدكتور/ محمد بدوي.

وليس معنى تركيزنا على هذا الإمام الجليل أنه هو وحده الذي تصدى لموضوع الأخلاق؛ إذ يشترك معه في هذا المضمار عدد من كبار رجال الفكر ومنهم المغفور له الدكتور/ محمد مهدي علام عميد كلية آداب عين شمس سابقًا، فله في هذا الميدان جهود نال عليها الدرجات العلمية.

وإن كان هؤلاء قد نالوا الدرجات العلمية الرفيعة في الدنيا، فإني أدعو الله عز وجل أن ينالوا بها أعلى الدرجات في الآخرة فضلاً من الله ونعمة.

وذلك لأنهم طبقوا هذه النظريات على أنفسهم، وضبطوا على هديها سلوكهم، فأصبحوا بذلك قدوة لتلاميذهم الذين حملوا لواء مكارم الأخلاق من بعدهم، وجنى المجتمع المصري، والمجتمع العربي، والإسلامي من ذلك أطيب الثمرات، وتحققت على ضفاف النيل في مصر المحروسة نهضة قامت على دعامتي الأخلاق والعلم، تخلّص الشعب المصري، والعربي بهما من كابوس الاستعمار الذي جثم على صدر الوطن ردحًا طويلاً من الزمن، لولا الأخلاق لظل جاثمًا عليه إلى الأبد، ولكن بالأخلاق حافظت الأمة المصرية على نفسها طيلة النصف الأول من القرن العشرين، وفقدت الأمة العربية نفسها طيلة النصف الأول من القرن العشرين، أما النصف الثاني منه فقد بدت في الأفق سحابة قاتمة سرعان ما غطت الشعوب العربية، ولا سيما مصر، فهددت زهور الأخلاق اليانعة بالذبول والفناء، حيث افتتن فريق غير قليل من

الأدباء، والمفكرين بما وصل إليه الغرب من تقدم وازدهار في حياته المادية، وانبهروا بما توصل إليه من مخترعات تمكنه من الحصول على ملذاته، وتتملق غرائزه وعواطفه، دون التقيد بمبادئ الأخلاق. واستطاع كهنة هذه المدنية الزائفة أن يكتسحوا الشخصيات الضعيفة من هؤلاء القادمين إليهم من الشرق، وأن يطفئوا في قلوبهم ألق الفطرة، وفي الوقت نفسه يزرعون في هذه القلوب، والعقول، فكرة أن الغرب لم يصل إلى ذلك إلا بعد أن تحرر من سلاسل الدين وقيوده؛ لأن العلم شيء والدين شيء آخر.

فلما عاد هذا الفريق إلى بلاده، عاد وهو يحتج على كل شيء في هذه البلاد وأولها الدين الذي ربطوا بينه وبين التخلف، وهذه تهمة الدين منها براء، لكنها لقيت رواجًا في الأوساط العلمية، والثقافية وصل إلى تمجيد العناصر التي دعت إلى التحلل من الدين وإهمال العناصر التي حافظت على شخصيتها ودينها وعروبتها، فتراجعت الأخلاق، وساد التسيب والانفلات، وعمت الفوضى الخلقية، حتى أصبحت الرذيلة فضيلة، والفضيلة رذيلة، وانساق الشباب إلى مستنقعات الآثام يعبَون من مياهها الراكدة العطنة ما يتملق غرائزهم، ويشبع حاجاتهم المحرمة، ورغباتهم المؤثمة، وأصبح الوطن حلبة صراع بين الأهواء الشخصية، والمآرب الذاتية، وسادت بين الناس الأنانية، والأثرة، وحب النفس، وتفشي الظلم، وضاعت الحقوق، مطحونة بين شقي الرحى: الطمع وفقدان الضمير؛ مما كان سببًا في صراع عنيف عاشت فيه الأمة وحصدت من جرائه الحصاد المر في ١٩٦٧م التي مثلت الصفعة التي يكيلها الطبيب ليفيق المريض من إغماءته.

وهذا ما حدث، فقد عادت وجوه الإصلاح إلى الشروق مرة أخرى، وتعالت صيحات الغيورين من أبناء الأمة، وقد توحدت آراؤهم في حتمية

الإصلاح، واجتمعت كلمتهم على العودة إلى مكارم الأخلاق، نبني بها ما تهدم، ونعمر بها ما خرب، ونعيد للبلاد إشراقة المجد التليد، ويسترجع الناس الثقة بأنفسهم، وتجتمع القلوب والعقول والجوارح على عزمة قوية شديدة هدفها استرجاع الذات بعد إنقاذها من مخالب اليأس والقنوط، وانتشالها من أوحال الشعور بالإحباط، وويلات الهزيمة النكراء.

نعم!!! لابد من استرداد هذه الذات من براثن عدوّنا هذا الذي بدى وجهه قبيحًا، يبعث في النفس التقزز، وفي القلب النفور، ويتوعد الإنسانية بالدمار والخراب؛ ولكن كيف يتحقق هذا الهدف النبيل؟! كيف ننقذ أنفسنا وننقذ الإنسانية مما ينتظرنا جميعًا من الويل والثبور، وسوء المصير؟

وتأتي الإجابة سريعة مواتية: يتم هذا بإصلاح النفوس وتخليصها مما شابها من فساد، ولن يتم ذلك إلا بغسلها في نهر مكارم الأخلاق. الأخلاق الإسلامية، ومنبع هذا النهر العظيم... هو القرآن الكريم، وبحيرة النور، بحيرة أشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم، من زكّاه الله سبحانه وتعالى وقال: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

وهذه الآية الشريفة مضافًا إليها، يقول الله سبحانه وتعالى:

﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيراً﴾ [الأحزاب: ٢١].

هاتان الآيتان تنبهان الناس عامة والمسلمين خاصة إلى حقيقة هامة، وهي أن الله جسّد في شخص سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم هديه في الأخلاق كاملاً غير منقوص، واضحًا ليس فيه غموض، ساطعًا لا ينطفئ أبدًا.. حقًا لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.. فسبحان من خلقه وصوره، وشق له سمعه، وبصره، وبمكارم الأخلاق

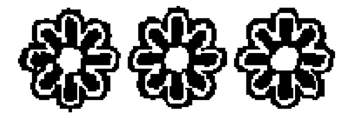
كمله وجمله، وجعل قلبه مستودعًا لدررها الغالية، وكنزًا لجواهرها الثمينة، فمن أراد له السعادة ألهمه أن يتزود من هذه الدرر، وأن يقتني من هذه الجواهر فيضمن السعادتين سعادة الدنيا، وسعادة الآخرة، وذلك هو الفوز المبين.

ومن هذا يتبين أننا سننهج في هذا البحث منهجًا ينتهي بنا وبالقارئ إلى الحصول على شيء من هذا الكنز الثمين يكون لنا زادًا يوم القيامة، يوم يقوم الناس لرب العالمين، وإذا ما قدر لنا ذلك، وشاء وشاءت حكمته فمنه التوفيق وعليه التكلان.

ونخصص **الجزء الأول:** للكلام في بعض محاسن أخلاق سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

ونخصص **الجزء الثاني:** لأخلاق المسلمين.

ونخصص **الجزء الثالث:** للآثار المترتبة على التمسك بالأخلاق الكريمة في المستوى المحلي، والمستوى الدولي. والله المستعان.



الجزء الأول

محاسن أخلاق سيدنا رسول الله

صلى الله عليه وسلم

الجزء الأول
من أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم

لقد كانت أم المؤمنين سيدتنا عائشة زوج سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم ملهمة من الله عز وجل عندما سُئلت عن خلقه فقالت: «كان خلقه القرآن».

فهي أحسنت الإجابة، وأراحت السامعين، وحققت الفائدة، وأصابت الحقيقة، وأحاطت بالمسئول عنه في عبارة بليغة جامعة مانعة بهذا التعريف الجامع المانع، أي أنها أرادت أن تدخل في روع الناس نعمة الله سبحانه وتعالى وفضله على حبيبه ومصطفاه أشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم، من أنه لم يترك صفة من مكارم الأخلاق إلا زوده بها، ولا سيئة من سيئات الأخلاق إلا نزهه عنها وعصمه منها، فسلوكه عليه الصلاة والسلام لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فسبحان من جعل قلبه وعاء للقرآن، وجعل جوارحه وسلوكه ترجمان للذكر الحكيم. والكلام في أخلاقه ﷺ يقتضي تفصيله في حال السلم، وفي حال الحرب ونخصص لكل قسم منهما فصلاً على حدة.



الفصل الأول
بعض أخلاقه في السلم
الحلم - حلمه صلى الله عليه وسلم

قصدت أن أبدأ بهذه الصفة من صفاته ﷺ التي حلاه الله سبحانه وتعالى بها، فتحلّى لما لها من فضل كبير في هداية الضالين، وطمأنينة المسيئين له، وتأكيد الإيمان في وجدان المؤمنين به، وتثبيت الإسلام في قلوب من أيدوه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه فكانوا من الفائزين، وأروع صورة للحلم أبرزها القرآن الكريم وجلّى عناصرها وقلدها لسيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم تسطع في:

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] .

روي عن سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم لما نزلت هذه الآية سأل جبريل عليه السلام، فقال:

«ما هذا يا جبريل؟»

فقال: «إن الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك، وتعطي من حرمك، وتصل من قطعك». [الفضيل بن عياض، الشفاء بتعريف حقوق المصطفى، الجزء الأول - وتفسير الإمام ابن كثير، تفسير آخر سورة الأعراف].

وهذه الآية ليست الآية الوحيدة التي رسخت معنى الحلم في وجدان حضرة النبي ﷺ . ولكن الآيات في هذا المعنى كثيرة ومنها:

﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ السَّيِّئَةَ نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَصِفُونَ (٩٦) وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ (٩٧) وَأَعُوذُ بِكَ رَبِّ أَن يَحْضُرُونِ﴾ [المؤمنون: ٩٦-٩٨] .

﴿وَلا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ (٣٤) وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلاَّ ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ [فصلت: ٣٤،٣٥].

وهذه الآيات الشريفة وما يماثلها من آيات القرآن الكريم يتجمع رضابها في قلب سيدنا رسول الله ﷺ، وفي وجدانه، فتنضح على جوارحه سلوكًا يفيح عبيره ليملأ ما بين السموات والأرض، عبيرًا يطيب شذاه، فتنشرح الصدور، ويسكن القلق، ويأمن الخائف، ويطمئن المذنب، ويفشو في المجتمع السلام.

• مواطن تجلى فيها هذا العفو:

١- لما كسرت رباعيته ﷺ وشج وجهه الشريف يوم أُحُد شق ذلك على الصحابة رضوان الله عليهم، وقالوا: «لو دعوت عليهم»، فقال: «إني لم أبعث لعَّانًا، ولكني بعثت داعيًا ورحمة، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون».

٢- روى الإمام البخاري ﷺ عن الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود قال: (لما كان يوم حنين آثر النبي ﷺ أناسًا في القسمة، فأعطى الأقرع بن حابس مائة من الإبل، وأعطى عيينَة مثل ذلك، وأعطى أناسًا من أشراف العرب فآثرهم في القسمة، قال رجل: والله إن هذه القسمة ما عُدل فيها، وما أريد بها وجه الله، فقلت: والله لأخبرنَّ النبي ﷺ فآتيته فأخبرته فقال: «فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله، رحم الله موسى فقد أوذي بأكثر من هذا»).

كتاب فروض الخمس:

٣- شهادة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ في تأبين سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم يوم وفاته؛ إذ قال: «بأبي أنت وأمي يارسول الله، لقد دعا نوحُ على قومه فقال: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا﴾ [نوح: ٢٦]، ولو دعوت علينا مثلها لهلكنا من عند

آخرنا، فلقد وطئ ظهرك، وأدمى وجهك، وكُسرت رباعيتك، فأبيت أن تقول إلا خيراً، فقلت: «اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون».

٤- تصدى له غورث بن الحرث ليفتك به ورسول الله ﷺ منتبذ تحت شجرة وحده، والناس قائلون في غزاة «يستريحون وقت القيلولة، فلم ينتبه رسول الله ﷺ إلا وهو قائم والسيف سلطًا في يده، فقال: من يمنعك مني؟ فقال: (الله) فسقط السيف من يده، فأخذه النبي ﷺ، وقال: من يمنعك مني؟ قال: كن خير آخذ، فتركه وعفا عنه، فجاء إلى قومه فقال: جئتكم من عند خير الناس».

عفوه عن ثقيف، وقريش يوم الطائف:

٥- يوم صَعَّدَت قريش أذاها له ولأصحابه، وذهب إلى الطائف يدعوها في شخص أميريها ولدي عبد ياليل، وأغروا الصبيان، والسفهاء، فقذفوه بالحجارة حتى دميت قدماه الشريفتان، وتخضبت رمال الصحراء بدمه الذكي، واكتوت قدماه بالنار التي اشتعلت في رمال الصحراء من وهج الشمس، وتحولت إلى جمرات ليفجر منها اللهب، وأوى إلى كرم عتبة وشيبة ابني ربيعة ليستظل بظله، وتوجه إلى الله بهذا الدعاء الذي اخترق السموات السبع، وزلزل الحجب، ومثل بين يدي الواحد القهار قال:

«اللهم إليك أشْكُو ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، ياأرحم الراحمين!! أنت ربُّ المستضعفين، وأنت ربي، إلى مَنْ تكلُني؟ إلى بعيد يتجهمني؟ أم إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك عليّ غضبٌ فلا أُبالي، ولكن عافيتك أوسعُ لي، أعوذُ بنورِ وجهكَ الذي أشرقت له الظُلُمَاتُ، وصلُح عليه أمر الدُنيا والآخرة، من أن تنزل بي غضبك أو تُحل عليّ سخطك لك العتبى حتى ترضى ولا حول ولا قوة إلا بك».

وهنا انشقت السماء عن جبريل عليه السلام وقال له: «يارسول الله: السلام يقرؤك السلام، وقد أرسل معي ملك الجبال ، فلو أمرته لأطبق عليهم الأخشبين «يعني الجبلين» فرد سيدنا رسول الله ﷺ : «لا يا أخي ياجبريل! ما بهذا بُعثت، لعل الله يخرج من أصلابهم من يقول: لا إله إلا الله».

٦- وجاءه زيد بن سعفة قبل إسلامه يتقاضاه دينًا عليه، فَجَبَذَ ثَوبَهُ عَنْ منكِبه وأخذ بمجامع ثيابه وأغلظ، ثم قال: «إنكم يابني عبد المطلب قوم مطل، فانتهره عمر وشدد له في القول، والنبي ﷺ يتبسم، فقال رسول الله: أنا وهو كنا إلى غير هذا منك أحوج يا عمر، تأمرني بحسن القضاء، وتأمره بحسن التقاضي، ثم قال: لقد بقي من أجله ثلاث، وأمر عمر أن يقضيه ماله ويزيده عشرين صاعًا لما روعه» ، فكان سبب إسلامه؛ وقد علل إسلامه بأنه يعلم علامات نبوته وخبرها فيه إلا اثنتين، هما حلمه عند جهل الجاهل عليه، ولا تزيده شدة الجهل إلا حلمًا. فاختبره بهذا الذي حدث منه فوجده.

وهكذا نرى أن أم المؤمنين عائشة ﵂ صدقت كل الصدق في قولها: «ما خُيِّر رسول الله ﷺ في أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يكن إثمًا، فإن كان إثمًا كان أبعد الناس منه، وما انتقم رسول الله ﷺ لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله تعالى فينتقم لله منها».

جميع هذه اللوحات الجميلة التي تضيؤها صفة الحلم التي تحلّى بها حبيب الله وصفوته من خلقه سيدنا محمد ﷺ منقولة من كتاب الشفا بتعريف حقوق سيدنا المصطفى، الجزء الأول.

ثمرات عفوه وحلمه في سلوك أصحابه الكرام:

أول من تغذت عواطفه النبيلة من فضيلة الحلم التي تجلت في سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم هو سيدنا أبو بكر الصديق

رضي الله عنه وأرضاه، حتى تخللت صفة الحلم جميع كيانه لدرجة أن الذي تعامل معه، أو يقرأ عنه يظن أن فضيلة الحلم هي الصفة الوحيدة التي يتحلى بها هذا الإنسان العظيم. وقد تجلت هذه الصفة بارزة للعيان في مواقفه الآتية:

١ - عندما استشار سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم أصحابه في أمر أسرى غزوة بدر الكبرى قال:

«يارسول الله!! بأبي أنت وأمي!! قومك منهم الآباء، والأبناء، والعمومة، وبنو العم، والإخوان، وأبعدهم منك قريب، فامنُن عليهم من الله عليك، أو فادهم يستنقذهم الله بك من النار، فتأخذ منهم ما أخذت قوة للمسلمين، فلعل الله أن يقبل بقلوبهم.

٢- موقفه مع مسطح بن أثاثة:

ابن خالته، وقد أساء إليه في الوقت الذي كان يغمره بفضله وينفق عليه، ويمده بما يحتاج إليه من مال، فلما عزم على حرمانه من رواتبه بعد الإساءة التي صدرت منه طعنة أوجعته سمع قول الله عز وجل، فامتثل، وواصله من جديد، حيث قال له الحق في سورة النور:

﴿وَلا يَأْتَلِ أُولُوا الْفَضْلِ مِنكُمْ وَالسَّعَةِ أَن يُؤْتُوا أُولِي الْقُرْبَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [النور: ٢٢] .

وأما ثاني الصحابة الذين نمت صفة الحلم فيهم بعد أن تغذت من معين الحلم عند سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم فهو أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ويتضح ذلك من سياق قصة ملخصها كما جاء في تفسير ابن كثير للآية ١٩٩ من سورة الأعراف:

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] .

وما رواه الإمام عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال:

قدم عيينة بن حصن على ابن أخيه الحر بن قيس، وكان قريبًا من أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه وطلب أن يستأذنه للدخول عليه، فلما أذن له أمير المؤمنين قال له: «هي يا ابن الخطاب، فوالله ما تعطينا الجزل، ولا تحكم بيننا بالعدل، فغضب أمير المؤمنين عمر غضبًا شديدًا، وهم أن يوقع به. فقال له الحر: ياأمير المؤمنين إن الله تعالى قال لنبيه عليه السلام (الآية رقم ١٩٩ سورة الأعراف):

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ وإن هذا من الجاهلين.

قال الإمام ابن عباس رضي الله عنهما: «والله ما جاوز عمر حين تلاها عليه، وكان وقافًا عند كتاب الله عز وجل».

هذه فضيلة الحلم التي تركزت في وجدان سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم، صارت ينبوعًا ثريًا نهل منه صحابته الكرام، فأصبحت مصدراً لسلوكهم تجاه رعاياهم بعد أن مكّن الله لهم في الأرض، فأصبحوا بدورهم أعلامًا يهدون بني الإنسان في مسيرتهم حين يقتدون بهم، ويأخذون بأيدي أولي العثرة حتى يصلوا بهم إلى مرفق النجاة، سعداء بالإسلام، سعداء بأشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

رحمته صلى الله عليه وسلم:

قال الله تعالى:

١ - ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ [سورة آل عمران: ١٥٩].

٢ - ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة التوبة: ٦١].

٣- ﴿فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُلْ حَسْبِيَ اللّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ [سورة التوبة: ١٢٩] .

٤- ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [سورة الأنبياء: ١٠٧] .

ومن هذه الآيات الشريفة يتبين أن الله سبحانه وتعالى قد صاغ كيان سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم من جوهر رحمته، وأضفى عليه اسمين من أسمائه الحسنى هما الرءوف والرحيم.

وقال سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم:

«إنما مثلي ومثلكم ومثل الناس كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش، وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها، فجعل ينزعهن ويغلبنه فيقتحمن، فأنا آخذ بحجزكم عن النار وأنتم تقتحمون فيها» «البخاري - كتاب الرقاق».

وقد تجلت هذه الرحمة في كل مواقفه وكل أفعاله وكل تعاملاته مع من حوله وما حوله ، وهاكم بعض هذه التجليات:

١- روي أن أعرابيًا جاء يطلب منه ﷺ فأعطاه، ثم قال: «أحسنت إليك»؟

٢- قال الأعرابي: لا ولا أجملت، وقام إليه الصحابة، إذ غضبوا من نكرانه فأشار إليهم عليه الصلاة والسلام أن كفوا، ثم قام ودخل منزله وأرسل إليه وزاده شيئًا ثم قال: أحسنت إليك؟

قال: نعم فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً .

فقال له النبي ﷺ : إنك قلت ما قلت، وفي أنفس أصحابي من ذلك شيء، فإن أحببت فقل ما قلت بين يدي أصحابي حتى يذهب ما في صدورهم عليك، قال : نعم، فلما كان الغد أو العشي جاء فقال ﷺ : إن هذا الأعرابي قال ما قال، فزدناه، فزعم أنه رضي أكذلك؟ قال: نعم، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيراً.

فقال ﷺ: «مثلي، ومثل هذا، مثل رجل له ناقة شردت عليه فاتبعها الناس، فلم يزيدوها إلا نفورًا، فناداهم صاحبها: خلوا بيني وبين ناقتي، فإني أرفق بها منكم وأعلم، فتوجه لها بين يديها، فأخذ لها من قمام الأرض فردها حتى جاءت واستناخت، وشد عليها رحلها واستوى عليها، وإني لو تركتكم حيث قال الرجل ما قال فقتلتموه دخل النار».

٣- جاءه سيدنا جبريل عليه السلام فقال له:

«إن الله قد سمع قول قومك لك، وما ردّوا عليك، وقد أمر ملك الجبال لتأمره بما شئت فيهم، فناداه ملك الجبال، وسلَّم عليه، وقال: مرني بما شئت، إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين. قال النبي ﷺ، بل أرجو أن يخرج الله من أصلابهم من يعبد الله وحده ولا يشرك به شيئًا».

وقد علق المغفور له الشيخ الإمام محمد أبو زهرة على هذه المواقف بقوله في كتاب خاتم النبيين الجزء الأول ص٢١٩ فقال:

«إن ذلك الحديث ينبئ عن حكمة الدعوة، والإرشاد، والهداية إلى الحق، يقرب الشارد، ولا يعاقبه، يدنيه إلى الحق، ولا يهلكه، وإنه يسوس النفوس ويتجه إلى الجادة من غير عنف. وفيه الشفقة الكاملة، وإنها علاج النفوس، وليس العنف علاجًا، ولكنه قمع في غلظة، وقد يؤدي إلى الإصرار على الشر والامتناع عن الخروج عن دائرته.

وفي ذلك كمال التبليغ للرسالة الإلهية، وتعليم الراعي كيف يسوس الرعية، ويأخذها مواطن الحق وحمايته».

(انتهى كلام شيخنا الجليل الإمام محمد أبو زهرة رحمه الله).

أرأيت الآن أيها القارئ الكريم كيف كان سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم يستحق عن جدارة أن يُتَوِّجَهُ الله سبحانه وتعالى باسمين من أسماء جماله هما «الرءوف والرحيم»، وهل لمست في

تصرفات سيدنا رسول الله ﷺ قدر الرحمة التي اترع بها قلبه، وجعلته يطلق سراح أسير شكا إليه حاله من الفقر والجهد وكثرة العيال.

٤- وتتألق هذه الرحمة وتسطع أنوارها متميزة إذا التقت في وجدان سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم مع الشعور بالمسئولية بالواجب والعدل، فالعدل - وهو نبي العدل ورسوله - يطالبه بقرار يصدر منه يحققه بارزًا للعيان، والرحمة تعتمل في قلبه، لتغطي هذا القرار وتلفه في ثوب الحنان، وغطاء الشفقة، وقد ظهر هذا التفاعل الطيب بين مشاعره الطيبة وشعور بالواجب والمسئولية عندما نظر في أمر أسير من أسرى بدر -وهو زوج ابنته زينب رضي الله عنها- وهو ابن أبي العاص .

تمسك عليه الصلاة والسلام بالفداء يدفعه زوج ابنته، وهذا هو الواجب والمسئولية والعدل، فرفض أن يفك إساره إلا بفداء.

وهنا أرسلت زوجته زينب بنت سيدنا رسول الله ﷺ حلية ذهبية كانت أمها وأم المؤمنين خديجة رضي الله عنها قد أهدتها بها ليلة عرسها، وهي من هي خديجة أم المؤمنين زوجة سيدنا رسول الله ﷺ وأعز نسائه لديه، وصاحبة التاريخ المضيء في قلبه، المؤثر في حياته المثمر في دعوته، النابع من حنانها وعطفها وحبها العظيم لشخصه العظيم.

نافورة من العواطف المتباينة تفجرت في قلبه الكبير، ولا يستطيع غيره أن يتغلب على واحدة منها على حساب الأخرى، فما يجب عليه من عدل يحتم عليه أخذ الفداء، ليشعر تلاميذه بالمساواة بين الناس التي فرضها الإسلام فرضًا، وحفرتها يداه عليه الصلاة والسلام على هام الزمان ركيزة من ركائز الدين الحنيف، ورحمة واجبة لابد أن تنهل منها ابنته الحبيبة زينب، ووفاء يتحرك في قلبه يدفعه الشجن من ذكرى زوجته الحبيبة خديجة... ذكريات الفضل، والفضيلة، والحنان، والحب والعطف، وكل ذلك ذات في دموع

تحدرت على وجنتيه الشريفتين حتى ابتلت لحيته. وتخلص من هذا الانفعال المكثف بقرار حكيم جمع به أصحاب الحق في الفداء لعرض الموضوع عليهم تاركًا لهم الخيار في أخذ الحلية، أو إعادتها لصاحبتها ابنته الكريمة، وفي الحالتين يفك أسر زوجها، وكان الرأي من أصحاب الحق في الفداء أن يعيدوا الحلية لصاحبتها، وفك إسار زوجها، وأطلق سراحه، وفرح المسلمون إذ حققوا لسيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ما قرت به عيناه وعينا ابنته الحبيبة زينب رضي الله عنها وأرضاها.

٥- مسألة أسرى بدر:

تمخضت غزوة بدر الكبرى عن وجود عدد من الأسرى من قريش، واستشار سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم صحابته الكرام في أمرهم، وأدلى كل منهم برأيه، فمنهم من رأى فداءهم بالمال مراعاة لصلة القربى والرحم، ومنهم من تمسك بقتلهم، وعلى رأس الفريق الأول سيدنا أبو بكر الصديق الذي قال لسيدنا رسول الله عليه الصلاة يارسول الله!! بأبي أنت وأمي!! قومك فيهم الآباء، والأبناء، والعمومة، وبنو العم والإخوان، وأبعدهم منك قريب، فامنن عليهم مَنَّ الله عليك، أو فَادهم يستنقذهم الله بك من النار، فتأخذ منهم ما أخذت قوة للمسلمين، فلعل الله أن يقبل بقلوبهم.

وجاء سيدنا عمر فجلس مجلسه وقال:

يارسول الله، هم أعداء الله، كذبوك، وقاتلوك، وأخرجوك، اضرب رقابهم، هم رءوس الكفر، وأئمة الضلالة، يوطئ الله بهم الإسلام ويذل بهم أهل الشرك. فأخذ سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم برأي أبي بكر وقبل فداء الأسرى، وإن كان الوحي قد جاء بتأييد رأي عمر رضي الله عنه في قوله عز من قائل: ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي

الأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٧﴾ لَوْلا كِتَابٌ مِّنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٨] .

٦- رحمته بسبطه ابن سيدتنا زينب ابنته (رضي الله عنهما):

هذا الغلام يحتضر، وعرفت والدته في وجهه صفرة الموت، وفي صوته حشرجته، فاستنقذت بأبيها نبي الرحمة، ورسول الأمة ﷺ أن يحضر ليشاركها ما بها من أحزان، ويساعدها في هذه المحنة، وسيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم يعتذر لها لفرط ما أودع الله سبحانه وتعالى في قلبه من الرحمة، فهو لا يريد أن يرى هذا الصغير وهو يعالج سكرات الموت، شفقة منه ويجمل لها في القول: «إن لله ما أخذ وما أعطى، وكل شيء عنده لأجل مسمى، فلتصبر ولتحتسب».

ولكن ابنته الكريمة المحببة إليه صممت على طلبها أن يحضر أبوها معها هذا المشهد المحزن، وهي تلتمس بذلك المعونة النفسية، التي تساعدها على اجتياز محنتها الصعبة، فأقسمت عليه، فلبى طلبها، وقام معه كوكبة من صحابته الكرام، ووضع غلامها المحتضر في حجره، وعيناه تذرفان فاض بها الحنان، وركزت فيها الرحمة، فقال له خاله سعد بن أبي وقاص ﷺ: ما هذا يارسول الله؟!. سؤال تعجب واستفسار؛ إذ إنه نبي الله، ورسوله، والهادي إلى الخير والصراط المستقيم. فرد على سؤاله ليطمئنه فقال عليه الصلاة والسلام: «هذه رحمة، وضعها الله في قلوب من شاء من عباده، ولا يرحم الله من عباده إلا الرحماء» [صحيح البخاري عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما].

درس من دروسه التي تنفع الناس، وتغذي فيهم مكارم الأخلاق، وتبعث فيهم أواصر المحبة، وتثري القيم والمثل الرفيعة، وتربط بين قلوبهم برباط الرحمة والحنان.

٧- وإليكم هذه اللوحة التي برزت فيها خصيصة من الخصائص التي يتميز بها رسولنا الكريم المصطفى ﷺ، وتفيح من بين ثناياه عطور العاطفة النبيلة، والخلق الكريم، وتسطع على جبينه أضواء الحكمة الهادية إلى الحق، وإلى الصراط المستقيم، والمشيرة إلى وحدانية الله سبحانه وتعالى، واستحقاقه وحده بالعبادة والتقديس دون سواه، وتفرده عز وجل بالجلال والسلطان، والعزة والجبروت، صورة لم تستطع المحنة أن تمنعه وهو في معمعتها أن يشير بإصبعه الشريف، لأصحابه الكرام إلى الحقيقة الأزلية الأبدية «لا إله إلا الله» وليس الناس إلا عبيدًا له سبحانه وتعالى مهما ارتفعت درجاتهم، أو علت أقدارهم ومهما كانوا من المقربين.

وهذا جزء من العقيدة الإسلامية التي جاء بها سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم وأمره الله عز وجل بتبليغها للناس أجمعين.

فإذا التقى الشعور بمسئولية أداء هذا الواجب مع مشاعره الإنسانية التي تمس شغاف قلبه الطاهر الزكي، فإن الغلبة تكون لهذا الواجب يؤديه على أكمل وجه .

بدا ذلك واضحًا وجليًا عند موت نجله الكريم إبراهيم عليه السلام، وهو الذي وهبه الله إياه عند الكبر، وبموته يكون الله سبحانه وتعالى قد استرد وديعته. في هذه اللحظة انشغل وجدانه عليه الصلاة والسلام بهذا الحادث الجلل، واعتراه حزن لم ير في مثله قط، من حيث حزن الأبوة، إذ بكى بكاء هز عواطف جميع من حوله، لما أحس به أسامة بن زيد صرخ؛ إذ لم يستطع أن يتحمل رؤيته لسيدنا رسول الله ﷺ وهو على هذه الحالة، فوجه إليه حديثه كلمات حاسمة قاطعة: «يا أسامة! !البكاء من الرحمن، والصراخ من الشيطان، بينما كان يقول في بكائه: «الموت حق، وإن القلب ليحزن، وإن العين لتدمع، ولكننا لا نقول ما يغضب الله، والله ياإبراهيم إننا عليك لمحزونون».

وتوافق في يوم موت إبراهيم أن كسفت الشمس، فقال المحبون: إن الشمس كسفت من أجل إبراهيم، وهنا تحقق انتصار الشعور بالمسئولية وأداء الواجب على الشعور بالحزن لوفاة نجله، فألقى على مسامع الحاضرين درسًا عرف طريقه إلى قلوبهم، وعقولهم، في كلمات قليلة حملت لهم نور اليقين وسلامة العقيدة .

«إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله، لا تكسفان لموت أحد، ولا لحياة أحد». وأمّ الناس وصلى بهم صلاة الكسوف.

وهكذا نرى في مواقف حضرة النبي ﷺ الخيط النوراني الدقيق الذي يميز بين عواطفه ويجعلها منظومة متكاملة، ينسق بينها إلهام الله له لتجتمع كلها على خدمة هذا الدين الحنيف عقيدة، وشريعة، وسلوكًا. فسبحان من وهبه هذا الكمال، وهذا التكامل، وصدق هذا النبي الكريم عندما قال:

«أدبني ربي فأحسن تأديبي». والحمد لله الذي جعلنا من أتباعه.

٨- وقف مع امرأة مصابة بخلل في قواها العقلية، ينفر منها الناس وانتحى بها جانبًا من الطريق، واستمع إليها، وقضى لها حاجتها في رحمة وشفقة غمرها بهما في إغداق أدخل على قلبها الطمأنينة.

٩- وجد صبية في الطريق تبكي وتشتد في البكاء وسألها عن حالها وما يبكيها وعرف أن مخدوميها كلفوها بشراء دقيق لهم، فضاع منها ثمن الدقيق، فهي تبكي خشية العقوبة التي ينزلها عليها مخدومها إذا عادت إليه بغير دقيق بسبب ضياع الثمن، فلما وقف على سبب بكائها سار معها النبي إلى مخدومها وشفع لها ومنعه من ضربها.

١٠- كان ﷺ يصلي في منزله، وكان الإمام الحسين سبطه يركب ظهره وهو ساجد فيطيل النبي الكريم الرءوف الرحيم السجود خشية أن يزعج ابنه الطفل، ويظل راكبًا متمتعًا بارتحال ظهر جده الشريف.

ثمرات هذا الخلق في سلوك المتلقين عنه:

تلقى الصحابة رضوان الله عليهم حصاد هذه المواقف، وهذه الأفعال والأقوال الصادرة عن سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم، فدخلت في تشكيل وجدانهم، وسيطرت على عواطفهم وأصبحت مصدراً ثريًا لسلوكهم، فسعدوا وسعد بهم الناس، وتحقق في أرجاء الدولة الإسلامية الحب والسلام النفسي والسلام الاجتماعي.

١- إن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب قد تشبع بهدي سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم، فكان لا يولي أمر الناس إلا من يتبين من تصرفاته أنه يرحم الناس ويرفق بهم. ولما دخل عليه واحد من الصحابة كان قد عزم على أن يوليه ولاية فوجده يقبل بعض ولده فسأله: أوتقبل أولادك يا أمير المؤمنين؟! قال: نعم، وأنت ألا تقبل ولدك؟ قال: لا. فقال الفاروق: وأنا لا أوليك، من لا يرحم ولده لا يرحم رعيته.

صدقه وأمانته:

الصدق يدخل في تكوين هذه الشخصية الفذة، شخصية سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم، بحيث يظن من يقرأ سيرته العطرة، ويشم عبير أقواله، ويتذوق حلاوة مواقفه وأفعاله بسيطرة هذا الخلق النبيل على كل شمائله، وبهيمنته على كل تصرفاته، وكأنه عليه الصلاة والسلام قد خلقه الله سبحانه منها وصاغه من جوهرها، بحيث أصبحت هذه الصفة ينبوع جميع أخلاقه ومنها الأمانة، فالصدق والأمانة وجهان لحقيقة واحدة لا ينفصل أحدهما عن الآخر وكل منهما في حقيقة واحدة.

والحديث عن صدق سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم وأمانته يعد من نافلة القول، يشهد بذلك تاريخه قبل أن يبعث للعالمين نبيًا ورسولاً ورحمة وهدى عليه الصلاة والسلام.

١ – ما ردَّدته أم المؤمنين السيدة خديجة رضي الله عنها عندما أحبت أن تدخل عليه الطمأنينة بعدما تلقى الوحي الشريف ولمست فيه خوفًا على نفسه فاستعرضت له صفاته التي استخرجتها من كنزه الثمين من الأخلاق أثناء عشرتها له فقالت: «.. وإنك لتصدق الحديث».

٢- إن قريشًا كانوا يستودعونه أماناتهم قبل البعثة، فلما بعثه الله سبحانه نبيًا ورسولاً وأصبحوا له مخالفين جاحدين يناصبونه العداء، كان هؤلاء يستودعونه أماناتهم، بالرغم من هذا العداء؛ لأنهم لا يجدون من بينهم من يتفوق عليه في هاتين الصفتين المجتمعتين في صفة واحدة هي الأمانة فكانوا قبل أن يبعث يسمونه بالصادق الأمين.

ويشهد بذلك ما كان منه في ليلة الهجرة عندما امتثل لأمر الله سبحانه وتعالى بالانتقال إلى يثرب لمباشرة دعوته إلى الله من هناك، أمر سيدنا عليًا ابن أبي طالب كرم الله وجهه ورضي الله عنه أن يؤدي الأمانات التي كانت لديه لأصحابها بعد أن بَيَّن له هذه الأمانات بتفصيل عرفه بها وعرفه بأصحابه بكل دقة.

٣- كان أبو سفيان بن حرب في رحلة تجارية في الشام على رأس قافلة من قريش، وصادف ذلك وصول رسالة سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم إلى هرقل حاكمًا يدعوه النبي ﷺ إلى الإسلام، فأحب أن يجمع معلومات عن هذا النبي الكريم، فأمر حجّابه أن يأتوا له بإناس من العرب يسألهم عنه. فتوافق ذلك في شخص أبي سفيان ومن معه فأمر بإدخالهم عليه، وأمرهم أن يختاروا منهم من يوجه إليه أسئلته، فوافقوا على أبي سفيان فعندما سأله عن توفر الصدق فيه، وعن بعده عن الكذب فقال: هو فينا صادق، ولم نجرب عليه كذبًا، مع أن أبا سفيان كان على عداء شديد مع سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم. فلم يستطع أن يسلبه صفة الصدق، ولم يستطع أن يسند إليه كذبة

واحدة وعلى ذلك فإنه عليه الصلاة والسلام هو الصادق الأمين، قبل البعثة وبعدها؛ لأنه عليه الصلاة والسلام جبل عليهما، وهما جناحا رسالته اللذان طارت بهما فعمت برحمتها أرض الوجود.

الفضل ما شهدت به الأعداء:

روي أن الأخنس بن شريق لقي أبا جهل يوم بدر فقال له: «يا أبا الحكم!! ليس هنا غيري وغيرك يسمع كلامنا!! تخبرني عن محمد صادق هو أم كاذب؟ فقال أبو جهل: والله إن محمداً لصادق، وما كذب محمد قط، وفي هذه الواقعة تصديق لقول الحق عز وجل: ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣].

ولا غرو فهو القائل:

«عليكم بالصدق، فإن الصدق يهدي إلى البر، وإن البر يهدي إلى الجنة، ولايزال العبد يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقاً».

ولقد كان لهذين الخلقين المتوفرين في شخص سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم، أعمق الأثر في نشر الإسلام، وذيوع مبادئه ومثله العليا في أرجاء الأرض على أيدي أصحابه الذين اقتدوا واقتفوا أثره وتخلقوا بأخلاقه فسعدت بهم الحياة.

وفاؤه:

إن صاحب الشخصية المتكاملة يحتفظ دائمًا لكل إنسان يتعامل معه برصيده من المعروف والعشرة الطيبة، والمعاملة الحسنة، وكلما مضى الزمن يزيد هو في الحرص على أن يوفي لصاحبه حقه في صيانة الجميل، والمحافظة على المعروف، ويظهر ذلك في سلوكه تجاه هذا الإنسان من ذكره بالطيب من الكلام، والزكي من الأفعال، حتى يشعر أنه فعلاً قد وفَّاه حقه، ويطمئن إلى أنه أدى له واجبه نحوه.

وليس هناك من بني الإنسان من يصل إلى مقام سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم في هذا الخلق النبيل؛ لأنه ليس هناك من هو أولى منه بهذه الصفة النبيلة، وهذا الخُلُق الرفيع.

وخلق الوفاء يتجلى متألقًا في مواقفه عليه الصلاة والسلام.

١- وفاؤه لأم المؤمنين السيدة خديجة رضوان الله عليها:

لقد أجمل عشرتها، وأحسن صحبتها، وأعزها إعزازًا لم تتطلع إليه امرأة في التاريخ، فلم يتزوج عليها في حياتها، فلما انتقلت إلى الرفيق الأعلى من الجنة حزن عليها وسمِّي العام الذي ماتت فيه «عام الحزن».

وقضى حياته كلها يكرم من كانت لهم صلة بها، سواء في ذلك أولادها من غيره أو ذوو قرابتها، أو من كانوا يخدمونها وكثيرًا ما كان يقول:

«أكرموا مثواها فإنها كانت تأتينا أيام خديجة».

وبلغ تكريمه لذكراها وذكر مآثرها أن أم المؤمنين عائشة ﵂ وكانت أثيرة عنده عليه الصلاة والسلام يحبها ويحترم عقلها، ويخصها بعاطفة نبيلة، إنها كانت تغار كلما جاء ذكر أم المؤمنين خديجة وصرحت ﵂ بذلك وقالت:

«ما غرت على امرأة ما غرت على خديجة، لما كنت أسمعه يذكرها، وإن كان ليذبح الشاة فيهديها النبي إلى خلائلها، استأذنت عليه أختها فارتاح إليها، ودخلت عليه امرأة فبش لها، وأحسن السؤال عنها، فلما خرجت قال: إنها كانت تأتينا أيام خديجة، ولقد كان عليه الصلاة والسلام يكرم أولادها من غيره ويصب عليهم الحنان صبًا فيحيي في قلوبهم زهور الوفاء يانعة.

حدث في بعض الحوار بينه وبين زوجته الحبيبة لديه الأثيرة عنده أم المؤمنين عائشة رضوان الله عليها أن قالت عن أم المؤمنين خديجة:

«هل كانت إلا عجوزًا أبدلك الله خيرًا منها؟!

فرد عليها صلوات الله وسلامه عليه فقال:

« لا والله ما أبدلني خيراً منها.. آمنت بي إذ كفر الناس، وصدقتني إذ كذبني الناس، وواستني بمالها إذ حرمني الناس، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء».

هذه الكلمات التي تفيض بالعواطف النبيلة يعبئ شذاها أرجاء الوجود، ويستقبلها اللوح المحفوظ لتسطر في صفحته كنزًا مركزًا لأم المؤمنين خديجة يتعطر منه ومن عبقه وجه الزمان، فينعش المثل العليا، ويبعث في الصدور مكارم الأخلاق، ويطمئن أهل الله، أهل الفضل، أهل الخلق العظيم في كل زمان إلى رحمة الله، وهم يسيرون على درب الحياة.. إنهم بطيب الفعال يذكرون، وبالصالحات يكافئون، ولقانون الله يطمئنون، هل جزاء الإحسان إلاَّ الإحسان، فإذا كان يوم القيامة، ونصب الميزان ونشر كتاب أم المؤمنين خديجة وجدت ووجد أهل الفضل معها تلك الكلمات المفعمة بالحب، المعطرة بالوفاء، والصادرة عن نبي الوفاء ورسول السلام، نقلت من اللوح المحفوظ إلى كتاب أم المؤمنين خديجة، وهي تقرؤه قريرة العين، فتعلم ويعلم الناس حصاد الوفاء.. ويعرف الناس أن هذه الكلمات كانت وفاءً لكلمات قالتها له في موقف كان يخشى على نفسه منه:

«إنك لتصل الرحم، وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتُقْرِي الضيف، وتعين على نوائب الدهر، وتصدق الحديث، وتؤدي الأمانة».

فهذه الكلمات، وكلمات سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم التي حملت إلى أم المؤمنين عائشة، وإلى كل مسلم مشاعره الطيبة تجاه أم المؤمنين خديجة، كلها تصدر عن مشكاة واحدة.. هي خلق الوفاء نعم ما تمتعتم به من خلق كريم يا أهل بيت سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعليكم وسلم تسليمًا كثيراً.

٢- وفاؤه للسيدة الجليلة فاطمة بنت أسد زوج عمه أبي طالب رضي الله عنها:

جاء في كتاب سير أعلام النبلاء للذهبي جزء ٢ ص١١٨ تحت بند ١٧ :

«لما ماتت فاطمة أم عليّ ألبسها النبي ﷺ قميصه، واضطجع في قبرها، فقالوا: مارأيناك يا رسول الله صنعت هذا!! فقال:

إنه لم يكن أحد بعد أبي طالب أَبَرَّ بـي منها، إنما ألبستها قميصي لتكسى من حلل الجنة، واضطجعت معها ليهوّن عليها».

ولقد قرأت في كتاب «زاد المعاد» لابن القيم أن سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم بعد وضعها في قبرها دعى الله بهذا الدعاء:

«اللهم إنك تعلم أن أمتك هذه قد جاعت لأشبع، وتعرت لأكسى، وسهرت لأنام، وتعبت لأستريح، اللهم إني أسألك بحق نبيك ورسولك محمد وبحق الأنبياء من قبله أن تغفر لها، وأن تريني مكانها في الجنة، ولم يخرج من القبر حتى اطمأن عليها وأراه الله مكانها في الجنة».

ولقد فعل ذلك سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم مع هذه السيدة الجليلة وفاء لها، حيث كانت زوجة عمه أبي طالب الذي كان قد ضمه لأولاده بعد وفاة جده عبد المطلب، فكانت تخصه بعناية فائقة في مأكله وملبسه، وتمعن في الإحسان إليه، فهو قد أراد أن يرد إليها صنيعها به في أيام صباه والذي نقش على قلبه الشريف ذخيرة لها نفعها بشيء عظيم في لحظة كانت هي أحوج ما تكون إليه ألا وهو الفوز بالجنة والنجاة من النار:

﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَن زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾ [سورة آل عمران: ١٨٥] .

نعم ما فزت به أيتها السيدة الجليلة جزاء من ربك عطاءً حسابًا، على ما زرعت في تربة فؤاد نبينا الخصبة من فعال طيبة، وصنائع جميلة ألحقتك بأم

المؤمنين خديجة ﵂.. هناك في الرفيق الأعلى من الجنة بدفعة نبوية محمدية دفعك بها أشرف الخلق سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم.

٣- وفاؤه لأمه في الرضاع حليمة السعدية وأولادها وزوجها:

فقد كان يبسط لهم رداءه عند استقباله لهم، فقد روى عن عمر بن السائب أن سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم كان جالسًا يومًا فأقبل أبوه من الرضاعة، فوضع له ثوبه فقعد عليه، ثم أقبلت أمه فوضع لها شق ثوبه من الجانب الآخر فجلست عليه، ثم أقبل أخوه من الرضاعة، فقام فأجلسه بين يديه، وأكرم الشيماء أخته في الرضاعة عندما جاءته أسيرة في أسرى قبيلة هوازن ومتعها وأرسلها إلى قومها.

٤- معاملته لوفد النجاشي ملك الحبشة:

في أبهى صورة للوفاء، وأوضح سلوك يدل عليه، تبدي فيه سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم كوكبًا مضيئًا من كواكب الخلق السامي، يوم جاء إلى المدينة وفد النجاشي ملك الحبشة في ضيافة الرسول الأكرم والنبي الأعظم عليه الصلاة والسلام.

والنجاشي، هو الذي أحسن معاملة المسلمين الذي هاجروا إلى الحبشة، حيث أحسن استقبالهم وأكرمهم وأمنهم من بطش قريش ومن أذاها.

فعندما حضر وفده ضيوفًا على سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم، أكرم وفادتهم، وقام بنفسه يخدمهم فقال له بعض الصحابة. نكفيك يا رسول الله خدمتهم، فقال لهم الوفي الأمين ﷺ:

«إنهم كانوا لأصحابنا مكرمين، وأحب أن أكافئهم».

تواضعه صلى الله عليه وسلم:

التواضع خلق جميل، إذا تحلّى بـه المرء زانه، وجمع الناس حوله، وأوجد السلام الاجتماعي بين الأفراد، فإذا تزين به من يملك أسباب القوة والقهر، يحول المجتمع إلى بستان وأصبحت الأرض حدائق ذات بهجة تغرد فيها البلابل، وتزدهر فيها الورود، وتطيب على أشجارها الثمرات.

ولم يتحقق التواضع كاملاً محققًا لكل الناس السعادة إلا في شخص واحد هو المثل الأعلى، والأسوة الحسنة، وهو أشرف الخلق سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم، صدرت عن هذا الخلق الرفيع أقواله، ونبعت منه أفعاله فطيب بها قلوبًا كثيرة، ورفع به قيمة نفوس ضعيفة، وحبّب الضعفاء في الحياة؛ إذ أدناهم منه، وقربهم إليه، وسمع حديثهم، وتحدث إليهم، فتفتحت على جوارحهم أزهار الإنسانية الرفيعة، فسعدوا بالحياة عندما سعدوا بصحبته الغنية الثرية بكل ما عرف الناس من فضل وفضيلة. قال لهم ولكل الناس: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا عبد الله ورسوله».

روى الإمام الفضيل بن عياض: كتاب الشفا عن أبي أمامة قال: خرج علينا رسول الله ﷺ متوكئًا على عصا فقمنا فقال: «لا تقوموا كما تقوم الأعاجم يعظّم بعضهم بعضًا، إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد».

كان ﷺ يركب الحمار، ويردف خلفه، ويعود المساكين، ويجالس الفقراء، ويجيب دعوة العبد، ويجلس بين أصحابه مختلطًا بهم، حيث انتهى به المجلس جلس.

جاءته امرأة في عقلها بعض الخلل (إعاقة ذهنية) فقالت: إن لي إليك حاجة، قال: «اجلسي يا أم فلان، في أي طرق المدينة شئت اجلسي، أجلس

إليك حتى أقضي حاجتك، قال: فجلست، فجلس النبي ﷺ حتى فرغت من حاجتها».

حجَّ ﷺ على رحل رث وعليه قطيفة، ما تساوي أربعة دراهم، فقال: «اللهم اجعله حجاً لا رياء فيه ولا سمعة».

كان في بيته في مهنة أهله، يحلب الشاه، ويرقع ثوبه، ويخصف نعله، ويخدم نفسه، ويُقم البيت، ويعقل البعير، ويأكل مع الخادم، ويعجن معها، ويحمل بضاعته من السوق.

دخل عليه رجل فأصابته من هيبته رعدة فقال: «هَوِّن عليك، فإني لست بملك، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد».

عن أبي هريرة ﷺ قال: دخلت السوق مع النبي ﷺ فاشترى سراويل، وقال للوزان: زن وارجح، وذكر القصة، فوثب إلى يد النبي ﷺ يقبلها، فجذب يده وقال:

هذا تفعله الأعاجم بملوكه ولست بملك، إنما أنا رجل منكم، ثم أخذ السراويل فذهبت لأحمله، فقال : صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله».

وقد انطبع هذا الخلق العظيم على قلوب صحابة سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم، فلم يغادرهم الواضع، ولم يتخلفوا عنه، ولم يتخلف عنهم، مهما قويت سطوتهم، وعظم سلطانهم، فقد ملكوا الأرض مشارقها ومغاربها، وهوت تحت أقدامهم تيجان الملوك، وتدحرجت رءوس الطغاة والمتجبرين أمامهم في ميادين القتال، وسلسل لهم مردة القادة الجبارين العتاة، وأقبلت عليهم الدنيا فحشدوا فيها ما أنجزته حضارات من قبلهم من أسباب الثراء، وعوامل العز، والكبرياء، والغرور، وما زادهم هذا كله إلا تواضعًا، وما صرفهم ذلك عن أخلاقهم التي طبعها سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم على جدران قلوبهم، والتي تسطع من حروف القرآن الكريم في قوله عز ومن قائل في الآية:

﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣]

اللهم زدنا من هذا الزاد الذي نتلقاه من سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وأسعدنا به كما أسعدت به أصحابه يارب العالمين.

عفته صلى الله عليه وسلم:

وأما عفته صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم فحدث عنها ولا حرج، فهذه العفة والتعالي على زخرف الدنيا وزينتها، ولعبها، ولهوها، وشغلها لعقول الناس، فإنها صحبته منذ طفولته وصباه إلى أن لحق بالرفيق الأعلى من الجنة.

١ - عفته ﷺ مغروسة في كيانه جزءًا منه؛ لأن العفة مجمع لما بقي من أخلاق، وهي لازمة له لزوم الشيء للشيء؛ لأنه نبي ورسول يدعو إلى الله، ويأخذ بيد الإنسان إلى مراتب الكمال، ولذلك فهي كانت حفاظًا من الله سبحانه وتعالى وصيانة له من اللهو. ولأن اللهو هو متنفس الشهوات والعواطف السلبية، فقد نزَّه الله نبيه ورسوله محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم عنه منذ طفولته الطاهرة، وحكمته في ذلك أنه يعده ليكون المثل الأعلى للإنسان في كل مكان وزمان إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

٢- وهو صبي وجد في نفسه رغبة في مشاهدة عرس فيه لهو فأنعم الله عليه بنوم أصابه براحة ولم يستيقظ حتى الصباح، وعندما أيقظته الشمس عند الضحى وكان السامر قد انقضى.

٣- وقد وهبه الله سبحانه وتعالى قدرة على السيطرة على نفسه مكنته من العزوف عن اللهو، فهو قد منح العصمة التي يتمتع بها الأنبياء باعتبار العصمة هي حصن الأخلاق الحصين، فسبحان من منحه إياها حفظت له

منظومة أخلاقه السامية، ونزهته ونزهت نفسه وخلقه عن الهوى. فواصل القول العفيف والفعل العفيف طوال حياته فما ينطق عن الهوى، سجل هو بنفسه واقعتين تؤرخ لهذه العفة الموهوبة له في الحادثة المذكورة، فقال فيما يرويه الإمام الفضيل بن عياض في الجزء الأول من كتاب الشفا فقال:

«قلت ليلة لغلام كان يرعى معي، لو أبصرت لي غنمي حتى أدخل مكة، فأسمر بها كما يسمر الشباب، فخرجت لذلك حتى جئت أول دار من مكة سمعت عزفًا بالدفوف والمزامير لعرس بعضهم، فجلست أنظر فضرب على أذني فنمت فما أيقظني إلا مس الشمس، فرجعت ولم أقض شيئًا، ثم عراني مثل ذلك، ثم لم أهم بعد ذلك بسوء».

شجاعته صلى الله عليه وسلم:

الشجاعة وسط عدل بين التهور والجبن، وكلاهما رذيلة، وهي خلق ذوي الهمة والعزم من الرجال، أو هي كما قال الإمام الفضيل بن عياض، هي فضيلة قوة الغضب وانقيادها للعقل، والنجدة ثقة النفس عند استرسالها إلى الموت، حيث يحمد فعلها دون خوف، وقد تميزت أقوال سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وأفعاله ومواقفه بشجاعة لا تظهر بغيره، ولا يظهر بها غيره. ومن مواقفه الدالة على ذلك ما يأتي:

١- رده على عمه أبي طالب يوم جاءت قريش تساومه في أمره:

مشى إلى أبي طالب نفر من عظماء قريش أزعجهم ما جاء به سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم من دعوة لعبادة الله وحده ونبذ عبادة الأصنام، والأوثان، وأحضروا معهم عمارة بن الوليد بن المغيرة الذي كان أقوى فتى في قريش، وكان أجمل أقرانه، وعرضه القوم على أبي طالب يتخذ عمارة ولدًا في مقابل تسليمه سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم لهم، مبدين استياءهم من شتم آلهتهم وسبها وقالوا:

«إنَّا والله لا نصبر على هذا من شتم آبائنا، وتسفيه أحلامنا، وعيب آلهتنا حتى تكفه عنا أو ننازله وإياك حتى يهلك أحد الفريقين. فلما رأى أبو طالب الغدر في أعينهم، وظهر له إصرارهم على ما هم فيه من ضلال، قال أبو طالب لسيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم: فابق عليّ وعلى نفسك ولا تحملني من الأمر ما لا أطيق».

وهنا... سكت سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم قليلاً، وقال: «والله ياعم لو وضعوا الشمس في يميني، والقمر في يساري، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته».

لقد تدفقت أنوار هذه الكلمات الحاسمة من معين الشجاعة التي أوتيها أشرف الخلق سيدنا محمد بن عبد الله نبي الله، وحبيبه، ومصطفاه صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم، ففرح بها الزمان والمكان، ومعهما الملأ الأعلى، وموكب الأنبياء، والمرسلين، بل فرح بها كل ما خلق الله سبحانه وتعالى من عوالم، حتى الوحوش في القفار، والحيتان في البحار، والأسماك في الأنهار، والطيور في الأوكار، وغنت بها البلابل فوق الأشجار ورددّت كل هذه الكائنات لحن التوحيد العظيم... لا إله إلا الله... محمد رسول الله. وكيف لا؟ وقد انقطع بذلك حبل الأمل عند أهل الضلال في بقاء ظلام الشرك مخيمًا على أرض الوجود، وأذن مؤذن الفجر ينشر أضواءه تمحو خيمة هذا الظلام... وتشق السماء عن شمس الإسلام بأشعتها المتوهجة تسري في عروق الإنسان حياة مضيئة، حارة، متدفقة تسوق أمامها جحافل الظلام إلى مقبرة التاريخ، تاركة المكان لمواكب النور تسطع وتهدر بأنشودة المجد لله المجيد.

الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله

لقد انبهر أبو طالب بشجاعة ابن أخيه، وأُخذ بهذه الكلمات التي أقرت في وجدانه ثبات هذا النبي الكريم عليه الصلاة والسلام ورباطة جأشه، وقوة

إيمانه، وعمق الصلة بينه وبين ما يدعو إليه، وأيقن أن قوة قريش مهما عظمت، فلن توقف هدير الإيمان في قلب محمد عليه الصلاة والسلام، وإن محمدًا يمثل كلمة الله، وقضاءه وقدرته سبحانه وتعالى، وكلمة الله هي العليا، وقضاؤه حتى النفاذ.

فلما وجد ابن أخيه يغادر المكان مصممًا على المضي في الدعوة إلى الله ناداه، وقال: «اذهب يا ابن أخي فقل ما أحببت فوالله لا أسلمك لشيء تكرهه أبدًا». ومضى سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم في طريقه داعيًا ومجاهدًا، إلى أن وصل بالإنسانية إلى ربها ورب الوجود.

٢- يوم حنين:

سأل رجل البراء بن عازب أفررتم يوم حنين عن رسول الله ﷺ ؟ قال: لكن رسول الله ﷺ لم يفر. ثم قال: لقد رأيته على بغلته البيضاء وأبو سفيان بن الحارث آخذ بلجامها، والنبي ﷺ يقول: أنا النبي لا كذب، أنا ابن عبد المطلب.

وحتى نعرف هذا الموقف الذي ظهرت فيه شجاعة سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم وثباته، علينا أن نلقي نظرة على أرض المعركة لنرى جيشًا كثيفًا جيَّشَه مالك بن عوف من ثقيف، وهوازن، ونصر، وجشم، وهي قبائل تمرست في الحرب وعرفت أساليبها، ومارست من قبل خططها، فتكونت عندها خبرة تكفل لها النصر.

وأفراد هذا الجيش العرمرم كلهم مقتنعون بما عزموا عليه من كسر شوكة المسلمين الذين فتح الله لهم مكة، وأتم لهم النصر، ومكنهم من تحطيم الأصنام، ورفع لواء الإسلام، وبسطه على ربوع مكة كلها، وأذن بلال بالمسجد الحرام، وعلا صوته مدويًا في أرجاء الوجود إلى الأبد.

أشهد أن لا إله إلا الله ... أشهد أن محمدًا رسول الله

فزعت هذه القبائل وخافت أن يحيق بها ما حاق بأهل الكفر من قريش، وخشيت سطوة المسلمين، فاستعدت بقيادة مالك بن عوف النضري لحرب وقائية يكسرون بها شوكة المسلمين، والتزموا أعالي الجبال، ليتمكنوا من الانقضاض على المسلمين إذا نزلوا الوادي انقضاضة تخلخل صفوفهم، وتزلزل أقدامهم، وتسودهم الفوضى، فيتحقق لهذه القبائل بقيادة مالك بن عوف، ونفذوا فيهم خطتهم، فاضطربت صفوفهم، واختلط الحابل بالنابل، وآثر بعضهم الفرار حيًا... حتى ظن أبو سفيان أنهم لن يكون لهم خلاص إلا البحر... وواتت الحاقدين فرصة ينفسون فيها عن حقدهم بعبارات تقطر شماتة، ولما رأى العباس بن عبد المطلب ﷺ عم سيدنا رسول الله ﷺ ما آل إليه حال المسلمين من فرار من الميدان طلبًا للنجاة من إراقة دمائهم، وتراجع صفوفهم عن سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم، صاح فيهم بصوته الجهوري ينادي كل فريق بمزاياه من أنصار، وأصحاب بيعة العقبة، والمهاجرين فذكر كل منهم مواقف سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم وثباته عند النزال، فثابوا إلى المعركة من جديد وواجهوا أعداءهم بقلوب مفعمة بالإيمان، وأعملوا السيوف والرماح في نحور الأعداء.

وسيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم يشد من أزرهم وهو يصيح في الجميع:

أنا النبي لا كذب... أنا ابن عبد المطلب، فَسَرَتْ في المسلمين روح غير عادية جعلتهم لا يخشون الموت، فتصايحوا بالأسماء وبالقبائل حتى تحقق النصر، ولاذت فلول الأعداء بالفرار.

وأنجز الله وعده... ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده، وكان أول أسباب النصر: شجاعة سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله

وصحبه وسلم، وثباته والذي لولاه لانفرط العقد، ولا أفلح هذا العدد في تحقيق هزيمة في صف المسلمين، ولكن الله الذي يحب سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم حقق النصر الذي لا يطفأ نوره إلى الأبد.

٣- يوم أحُد:

تحقق نصر المسلمين في صباح يوم أُحُد عندما امتثلوا لأوامر سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم، يكفي في وصفه ما أجمع عليه المؤرخون أنه معجزة من معجزات الحرب، وذلك بفضل الله سبحانه على نبيه ومصطفاه محمد ﷺ الذي تجلت مهارته الحربية في وضعه الرماة في شعب «جبل أُحُد» يصدّون عن المسلمين الفرسان من أهل الكفر والضلال. وكان هذا ضمانة من ضمانات النصر، وقد كان للإيمان دوره المتألق في هذه المعركة؛ إذ إن جنود الإسلام في هذا اليوم ستمائة، بينما الذين هاجموهم من أهل الكفر ثلاثة آلاف يتفوقون على عدد المسلمين عدة وعتادًا، فالإيمان بالله وبرسوله وهب المسلمين قوة عزيمة، وجمال صبر، وثبات أفئدة فأقبلوا على القتال يتعجلون النصر أو الجنة، وقد نفخ فيهم سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم من روحه. فمزقوا صفوف أعداء الله وأعداء الإسلام وأعملوا فيهم القتل، وأوشكوا أن يأسروا نساءهم لولا فرارهم فتابعوهم وقد تركوا من خلفهم غنائم وأسلابًا بلغت من الكثرة أن أغرت العديد من جند المسلمين أن ينتهبوها.

وهنا حدثت غلطة كبرى كان سيدنا رسول الله صلي الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم يحذرها ويحذر منها، فقد لعبت الغنائم بعقول البعض من الرماة الذين ألزمهم شعاب الجبل، فجعلتهم يغادرون أماكنهم لجمع هذه الغنائم وهذه الأسلاب، وحيازتها لأنفسهم مما حدا بجند الأعداء أن يكروا عليهم وعلى إخوانهم، فأعملوا فيهم السلاح يقودهم خالد بن

الوليد، فأحدث فيهم كارثة كان حصادها الأرواح وانقلب الحال فبعد أن كان المسلمون يحاربون بالإيمان للنصر أصبحوا يقاتلون للنجاة، فتمزقت صفوفهم، وسادت الفوضى، وانفرط العقد، وغمت الرؤية، وليس بعيداً أن يقتل المسلم، وطار القوم في إشاعة بموت سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وطرب لها الكفار، وحرص كل منهم على أن يكون له نصيب في قتله أو على الأقل يراه بعينه ميتًا.

أما المسلمون فقد تحلقوا حول نبيهم عليه الصلاة والسلام يفدونه بأرواحهم التي جادوا بها غير هيّابين، ولا خائفين، وسرى في دمائهم حب الموت، فتولدت في قلوبهم الاستماتة في الدفاع عنه، وبالرغم من ذلك فقد وصله أذى الكفار، فأصيب بجراح سخينة، شج في وجهه، وسقطت رباعيته، وجرحت شفته، ودخل مغفره الذي يشتر به وجهه في وجنتيه، وسال دمه الزكي.

وبرزت في هذه الفوضى أم عمارة الأنصارية تستلَ سيفًا تدفع به الشر عن سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وهو عليه الصلاة وأزكى السلام يرمي بالنبل ليدفع عن أصحابه ويلات هذه الحرب الضروس ثابتًا لا يتزعزع، قويًا لا يضعف، شديداً لا يلين، فقد صاح في القوم كعب بن مالك قائلاً: «ياقوم أبشروا فإن رسول الله ﷺ حي لم يمت».

فنبهت هذه الصيحة بعض كفار قريش ومنهم أُبي بن خلف لعنه الله حيث أصر على قتل سيدنا رسول الله ﷺ فناجزه الرسول ﷺ بطعنة نافذة سلمته للموت وهو في الطريق إلى مكة بل إلى جهنم وبئس المصير.

وتجلت في هذا اليوم شجاعة سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وثباته وهما متولدان عن ثقته بربه العلي الأعلى، وتوثقه من ظهور هذا الدين الحنيف على الدين كله، فإذا تعرض لبلاء يغيب النصر عنه هذه المرة، بعد أن انفلت بعض أصحابه الكرام من أوامره، فإن الله سبحانه وتعالى كفيل بأن يعوضه عن ذلك بنصر قريب، وما ذلك على الله

بعزيز، وسرعان ما انتقلت هذه المشاعر إلى أصحابه فانقادوا له يطاردون عدو الله وعدوهم، فعادت الثقة إلى جيش الإسلام.

٤- فزع أهل المدينة ذات ليلة متأثرين بصوت غير عادي كأنه ينذر بخطر، فانطلقوا كل يريد أن يقف على هذا الصوت مصدر هذا الخطر المحتمل، فتلقاهم سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم راجعًا بعد أن سبقهم جميعًا إلى مصدر الصوت وطمأنهم قائلاً: «لا تراعوا».

٥- قتله لأُبَيّ بن خلف لعنه الله:

عندما أُسِرَ أُبَيّ بن خلف يوم بدر، وكان من ألد أعداء سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وقدم الفداء الذي فك به أسره، وأعتق من القتل، توعد سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم بقتله زاعمًا أن عنده فرسًا يعلفها كل يوم فرقًا من ذرة يقتله عليها فأنذره النبي ﷺ بأنه هو الذي يقتله إن شاء الله.

فلما رأى هذا الملعون سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم يوم أُحد شد على فرسه عليه فاعترضه جنوده فأمرهم أن يخلوا له الطريق، وتناول عليه الصلاة والسلام حربة انتفض بها انتفاضة أبعدت الناس عنه، فطعن أُبَيّ بن خلف طعنة دكت عظامه قبل أن تمزق لحمه، فعاد إلى قريش صائحًا: «لقد قتلني محمد» وهم يواسونه لكنه كان واثقًا من أنه قتل، وقال: «لو كان ما بي في جميع الناس لقتلهم، أليس قد قال: «أنا أقتلك؟ والله لو بصق عليّ لقتلني». ومات بمكان اسمه سرف أثناء عودتهم إلى مكة، وشيعوه إلى جهنم وبئس المصير، إنه عدو الله وعدو رسوله وعدو الإسلام والمسلمين.

وهكذا برزت شجاعة سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم في ساعة المحنة والبلاء، ودماء الشهداء تغطي رمال الوادي في أُحُد، كما سطعت في كل مكان وزمان.

حياؤه صلى الله عليه وسلم:

عرف الإمام الفضيل بن عياض الحياء فقال: «الحياء رقة تعتري وجه الإنسان عند فعل ما يتوقع كراهيته أو ما يكون تركه خيراً من فعله».

وبهذه المثابة كان سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم أشد الناس حياء، وفي المأثور عن أصحابه ﷺ:

«كان سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم أشد حياءً من العذراء في خدرها»، وفي الصحيح عن أم المؤمنين سيدتنا عائشة رضي الله عنها: «لم يكن النبي ﷺ فاحشًا ولا متفحشًا ولا سَخَّابًا بالأسواق ولا يجزي بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويصفح، وكان لا يثبت بصره في وجه أحد».

وقد شهد الله له عليه الصلاة والسلام بتغلب هذا الخلق عليه في أقواله وأفعاله ومواقفه، فقال في الآية في سورة الأحزاب:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانتَشِرُوا وَلا مُسْتَئْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنكُمْ وَاللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَاعًا فَاسْأَلُوهُنَّ مِن وَرَاءِ حِجَابٍ ذَلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ وَلا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَدًا إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ عِندَ اللَّهِ عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٣].

ولا يوجد على الأرض من هو أولى من سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم بهذا الخُلُق الذي تحتشد فيه جميع مكارم الأخلاق، وتجتمع فيه كل الفضائل، وتتراجع بواسطته جميع الرذائل، وعن طريقه يتفجر الخير في المجتمع، وتغيض منابع الشر، ويتحقق على الأرض السلام.

الفصل الثاني
أخلاق سيدنا رسول الله ﷺ في الحرب

الحرب عند سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم استثناء يرد على قاعدة عامة هي الحب والسلام والإخاء بين أفراد بنيِ الإنسان وضرورة عن طريق الأخذ بها، والحكم على مقتضاها يستقيم المُعوجَ ويعود إلى الفطرة التي فطر الله الناس عليها من الحق والعدل.

والاستثناء كما يقال لا يتوسع في تفسيره، والضرورة تقدر بقدرها، وأن يخدم حقيقة من حقائق الإسلام التي أرساها الله سبحانه وتعالى في وجدان نبيه ورسوله ومصطفاه من خلقه سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم، والتي تسطع بها سورة الأنعام: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [الأنعام: ١١٥].

وإذن فالحرب شرعت في الإسلام لتقويم نفوس اعوجت فظلمت، وعميت فضلت، وقويت فطغت، وملكت فبغت، وبصَرت بالحق فاعتدت، وللباطل انتصرت، ودافعت وعلى العدوان أصرت، وللقتال دبرت واعدت، وللخراب سعت وهاجمت، فكان لابد لها أن تفيق من هذا الغرور، وكان لابد للحق أن يعلو ولا يُعْلَى عليه، وكان لأهل الحق أن يتيقنوا أنهم على الحق، وأن الله وهو الحق على نصرهم لقدير.

أي أن هدف الحرب تقليم أظافر المعتدي الغاشم والقصاص منه، وإن بدت فيه قسوة على هذا الظالم، ففيه رحمة بالمظلوم، واجبة له، تشعر بالأمن والطمأنينة وعلى ذلك فإن نبي الله ورسوله ﷺ لم يحارب للحرب ذاتها،

فلم يخرج في حياته لحرب عدوانية، وإنما حارب لرد اعتداء المعتدين، ودفع ظلم الظالمين، على هدي من آيات الله وأحكامه التي جاءت بالقرآن الكريم:

١- ﴿الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّا أَن يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠] .

٢- ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ [البقرة: ٢٥١] .

٣- ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦] .

٤- ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٤-٧٦] .

٥- ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠] .

٦- ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُم بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُم بِهِ وَذَٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ

الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ الآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللَّهِ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١١١ - ١١٢].

٧- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (١٠) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ (١١) يَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتِ عَدْنٍ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٢) وَأُخْرَىٰ تُحِبُّونَهَا نَصْرٌ مِّنَ اللَّهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٠-١٣].

٨- ﴿قُلْ إِن كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٢٤].

٩- ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٩].

١٠- ﴿وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥].

١١- ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١].

١٢- ﴿وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَٰئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ

الَّذِينَ أَنفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ [الحديد: ١٠].

١٣- ﴿لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِّنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [النساء: ٩٥-٩٦].

١٤- ﴿لَيْسَ عَلَى الأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلا عَلَى الأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ [الفتح: ١٧].

١٥- ﴿وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلاَّ مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٦].

١٦- ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَفْقَهُونَ﴾ [الأنفال: ٦٥].

١٧- ﴿إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ﴾ [الصف: ٤].

١٨- ﴿إِلاَّ تَنفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٩].

١٩- ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

٢٠- ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لاَّ تَشْعُرُونَ﴾ [البقرة: ١٥٤] .

٢١- ﴿إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً﴾ [النساء: ٩٠] .

٢٤- ﴿وَإِن جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦١-٦٢] .

٢٥- ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلا تَنقُضُوا الأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ (٩١) وَلا تَكُونُوا كَالَّتِي نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنْ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَاثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَانَكُمْ دَخَلاً بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِيَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ إِنَّمَا يَبْلُوكُمُ اللَّهُ بِهِ وَلَيُبَيِّنَنَّ لَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [النحل: ٩١-٩٢] .

٢٦- ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلاَّ عَلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٧٢] .

٢٧- ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ [الحج: ٤١] . (صدق الله العظيم)

لقد تعمدت أن أدون جميع آيات القرآن الكريم التي تتحدث عن الحرب، باعتبارها جهادًا في سبيل الله، وتتضمن دستورها وتحدد طبيعتها، وترسم قواعدها وأحكامها التي يلتزم بها مجتمع المسلمين، وتتقيد بها دولتهم وحتي تتم الفائدة فلابد من بيان هذه الأحكام وهذه القواعد التي يتعين الالتزام بها وعدم تجاوزها، فلابد من اللجوء إلى السنة النبوية الشريفة لنقف على معالم هذه الحرب وعلى هدي سيدنارسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم.. فهيا إليه لنتعلم!!

١- عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: قلت يارسول الله، أي العمل أحب إلى الله تعالى؟ قال: الصلاة على وقتها. قلت: ثم أي؟ قال: بر الوالدين، قلت: ثم أي؟ قال: الجهاد في سبيل الله» [متفق عليه].

٢- وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من رضي بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولاً وجبت له الجنة»، فعجب لها أبو سعيد، فقال : أعدها عليّ يارسول الله، فأعادها عليه، ثم قال: «وأخرى يرفع الله بها العبد مائة درجة في الجنة ما بين كل درجتين كما بين السماء والأرض، قال: وما هي يارسول الله؟ قال: الجهاد في سبيل الله، الجهاد في سبيل الله» [رواه مسلم].

٣- عن أبي موسى رضي الله عنه أن أعرابيًا أتى النبي ﷺ فقال: يارسول الله! الرجل يقاتل للمغنم، والرجل يقاتل ليذكر، والرجل يقاتل ليرى مكانه، فمن في سبيل الله؟ فقال رسول الله ﷺ : «من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» [متفق عليه].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «عينان لا تمسهما النار: عين بكت من خشية الله، وعين باتت تحرس في سبيل الله».

٤- وعن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله وهو على المنبر يقول: «وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة: ألا إن القوة الرمي، ألا إن القوة الرمي» [رواه مسلم].

الآن وبعد أن اطلعنا على جميع الآيات القرآنية التي ورد بها ذكر الحرب والجهاد، وبعض الأحاديث الشريفة المروية عن الثقات والتي تبين طبيعة الجهاد في سبيل الله والتعريف به، وبأحكامه فإننا نتكلم عن مشروعية الحرب في الإسلام وبواعثها والأهداف التي ترمي إليها، وعن الأخلاق التي يتحلى بها المجتمع الإسلامي ممثلاً في جيشه قادة كانوا أم جنود. وإذن فالحرب في الإسلام ليست حرب إبادة إنما هي حرب إصلاح يقوّم بها المعوج وتصلح بها الفاسد ويتحقق السلام.



مشروعية الحرب

الحرب دفاع عن الإسلام وعن المسلمين:

الأصل أن الإسلام دين؛ ومعنى أنه دين أنه دعوة ورسالة تتضمن حكم الله سبحانه وتعالى عقيدة وشريعة وأخلاقًا، وعلى هذا فإن سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم بعث نبيًا ورسولاً وداعيًا إلى الله بإذنه، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِداً وَمُبَشِّراً وَنَذِيراً (٤٥) وَدَاعِياً إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجاً مُّنِيراً﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٦] .

وقد كان ﷺ أشد الناس تواضعًا وأعدمهم كبرًا، ويكفي أنه خير بين أن يكون نبيًا ملكًا، أو نبيًا عبدًا، فاختار أن يكون نبيًا عبدًا، فهو في جوهره رحمة الله للعباد. وإنَّه بالدعوة وصل الإسلام إلى كثير من عباد الله الصالحين، وليس في حاجة إلى سيف يبلغ به هذا الدين ولا إلى رمح يعلم الناس آدابه وأحكامه، وإنَّه ظل على عهده بالتجمل بالصبر، والتحلي بالعفو، والسعي بالرحمة سنوات الدعوة كلها لم يرفع في وجه أحد سيفًا، ولم يلوح أمامه برمح.. حتى وهو أصحابه الكرام يعانون في مكة أوجع التعذيب، ويقاسون الهوان والتهوين.

والثابت بيقين من تاريخه الجميل، ومن تتبع مسيرته أنه لم يُكْرِه أحدًا على اعتناق هذا الدين الحنيف، بل ظل يدعو إليه ممتثلاً لأمر الله عز وجل في سورة النحل: ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [النحل: ١٢٥] .

وفي سورة البقرة: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦] .

هذا هو الأصل في دين الإسلام؛ وعلى ذلك فإن السلام هو الأصل، والحرب هي الاستثناء، ومن هنا فإن للحرب دواعيها وأسبابها التي لا تمثل القواعد العامة في التعامل مع الإنسان، وإنما هي تشريع استثنائي اقتضته ضرورة لحماية الدين الحنيف وحماية المؤمنين به في حالة الاعتداء على أي منهما، وفيه تتمثل العدالة في أبهى صورها وأكمل معانيها.

وفي هذه الحالة - حالة العدوان من الغير - تكون الحرب هي العلاج الوحيد - والطريقة الوحيدة للقضاء على العدوان وحفظ الحقوق المهددة بالضياع، وحفظ النفوس المهددة بالعدم، وحفظ القيم الرفيعة المهددة بالزوال، وحفظ الحياة المهددة بالفناء، فإذا ما تقاعس القائد لجيش الدين الذي هو الحق عن خوض هذه الحرب، فإنه يكون قد قصر في أداء واجب شرعه الله سبحانه وتعالى ورسوله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم. ويسأل عنه يوم يقوم الناس لرب العالمين، ذلك لأنه قد اشترك مع المعتدي في الظلم بخضوعه له والسكوت عن مقاومته، ويكون مثلاً سيئًا لأمته حيث يجبرها على تقبل الذل والهوان.

وفي ضوء ما تقدم يتبين بجلاء أن دستور الحرب في الإسلام يقوم على القواعد الآتية:

أولاً: الباعث عليها: هو رد العدوان ومقاومة الظلم:

١- قال الله تعالى: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠] .

٢- ﴿فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾ وَمَا لَكُمْ لَا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ

هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا (٧٥) الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٧٤-٧٦] .

من هذه النصوص القرآنية يتضح أن الحرب شرعت لحماية هذا الدين بالدفاع عنه إذا ما سولت لأي فرد نفسه أو حدثت أي مجتمع نفسه الاعتداء عليه أو محاولة النيل منه؛ وكذلك إذا حاول فرد أو مجتمع مهاجمة الناس في المجتمع الإسلامي أو الاقتراب من الضعفاء من الناس بسحقهم أو اكتساحهم وهضم حقوقهم، بإذلالهم أو قهرهم، فيجأرون بالشكوى من الظلم والبغي والفساد، فيكون السكوت على ما يعانونه من الخسف والتنكيل نوعًا بشعًا من الظلم، وتكون المبادرة إلى نصرتهم وتمكينهم من حقوقهم عملاً نبيلاً وسلوكًا فاضلاً مهما صحبه من استعمال للقوة الرادعة التي تقطع يد الطغيان وتحطم كيان الظلم.. وإذن فالحرب هنا فضل وفضيلة.

ثانيًا: تأمين الدعوة الإسلامية:

عندما تنبه أعداء العدالة الإلهية إلى حقيقة الدعوة الإسلامية، وأنها تحمل للإنسانية التحرر من عبادة الأوثان والاقتصار على عبادة الله وحده واجب الوجود والمستحق للعبادة دون سواه.

وما تنطوي عليه من المساواة بين الناس، وأنه لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى، وإنَّ ظلم الإنسان لأخيه الإنسان سُبَّة يتعين أن تختفي، وأنه لا سبق للإنسان في مضمار الحياة إلا بعمله الصالح يقدمه مساهمة في مسيرة المجتمع يبتغي به وجه الله، وأن العدل هو أساس الملك، فالقوي ضعيف حتى يؤخذ الحق منه، والضعيف قوي حتى يؤخذ الحق له، فالكل أمام الشريعة سواء. وباختصار عندما أحسَّ الطغاة أفول نجم مجتمع

الطغيان، وزوال عهد الأنانية والتسلط، وبزوغ فجر الحضارة الذي سطر بأضوائه حقوق الإنسان على هامة الزمان.

عندما أزعجهم وهج شمس الإسلام تحول ليل الصحراء إلى نهار كشف ما عندهم من رخيص الزاد ومن أتفه المتاع.. تجمعت فلولهم، وتوحدت آراؤهم على وأد هذا الدين فنظموا أنفسهم حربًا عليه، واستعانوا على ذلك بتكوين الأحزاب والأحلاف، مع اختلاف انتماءاتهم، ومذاهبهم ومللهم ونحلهم التي يناقض بعضها بعضًا، ولم تلتق إلا على هدف واحد هو التخلص من هذا الدين، بالقضاء على نبيه ﷺ وعلى المؤمنين به.

فكان لابد من التصدي لهؤلاء الحاقدين أعداء الله، وأعداء الدين، أعداء الحياة تأمينًا للمسيرة الظافرة التي تحمل في أيديها الخير كل الخير للإنسان على مدى الدهر حتى يقوم الناس لرب العالمين.

ثالثًا: حكمة سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه، وتريثه عند لقاء العدو:

فإنه كان يتذرع بالصبر، ويلتزم بالأناة، ولا يعاجل عدوه بالضرب، حتى تظهر قوته، ويقوم بقتل أحد جنود الإسلام، وكان يقول لجنوده: «لا تقاتلوهم حتى تدعوهم، فإن أبوا فلا تقاتلوهم حتى يبدؤكم، فإن بدءوكم، فلا تقاتلوهم حتى يقتلوا منكم قتيلاً، ثم أروهم ذلك، وقولوا لهم: هل إلى خير من هذا سبيل؟ فلئن يهدي الله على يديك رجلاً واحداً خير مما طلعت عليه الشمس وغربت».

كل هذا في وصية سيدنا رسول الله ﷺ لمعاذ بن جبل وقد أرسله إلى اليمن قائداً، إن سيدنا رسول الله ﷺ نبي ورسول صاحب دعوة ورسالة، وهمه الأول هو تبليغ هذه الرسالة وغرس مبادئها في النفوس، وتزيين القلوب بعقيدتها، وتزكية الوجدانات بشريعتها، وتعطير الجوارح بأخلاقها، هذا هو همه، وهذا هو هدفه، وهو يعلم أن العقل هو الوعاء الحقيقي لعلم

هذه الرسالة، وأن القلب هو البوتقة التي تتلقى رحيقها، فإذا استطاع أن يصل إليهما، ونجح في نقشها على هذا العقل، وأفلح في صب رحيقها في القلب، فإنه يكون في غنى عن استعمال السلاح، وإذا أصرَّ العدو على غلق عقله، وإحكام الحجاب على قلبه ولم يعد يقبل المسالمة، وأصر على العدوان، وبرزت نيته السيئة في عمل ظاهر للعيان بقتل أحد الجنود في الصف المسلم، عند ذلك لم يبق إلا السيف حكمًا بينه وبين العدو المتربص به المصر على إلحاق الضرر به وبالدين وبالمؤمنين.

رابعًا: الالتزام بالرفق:

إذا حمي وطيس الحرب، واشتد أُوَار المعركة، وثار النقع، وتصايح الفرسان، واشتد الغضب، وعَلَتْ الأصوات بالنذر، وظن المراقب للمعركة أن شبح الموت يصول ويجول، يرى بقلبه وناظريه ملك الرفق يضيء بوجهه سماء المعركة، وتفتر أسنانه عن ابتسامة تبعث الأمل في النفوس؛ لأن الرفق والرحمة هما جوهر هذا النبي ﷺ وهما في ذاته المعدن والأساس، فهو القائل: «أنا نبي المرحمة.. وأنا نبي الملحمة».

ودائمًا ترى سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم متفائلاً تفاؤل مشرق القلب، وقوي الإيمان، بإدخال الهدى قلوب الآخرين، وتأليف هذه القلوب، حتى وإن تقاطعت السيوف، واشتجرت الرماح، وصال شبح الموت وجال في المعركة، وعن هذا التفاؤل ومن مشكاة هذا الإشراق خرجت للعالمين أنوار هذه الوصية من وصاياه التي كان يزود بها أصحابه في وقت التحامهم بجند العدو.

«تألفوا الناس، وتأنوا بهم، ولا تغيروا عليهم حتى تدعوهم، فما على الأرض من أهل مدر أو وبر، أن تأتوني بهم مسلمين أحبّ إليّ من أن تأتوني بأبنائهم ونسائهم وتقتلوا رجالهم».

حقًا إنه نبي ورسول وليس سقاتلاً من أجل المال، وليس متعطشًا للدم، ولا راغبًا في الانتقام كما يقول أصحاب النفوس الحاقدة، والأقلام المأجورة، والعقول الآسنة في الشرق والغرب.

خامساً: حرصه ﷺ على تنمية الحياة وازدهار المسيرة الإنسانية:

كانت وصاياه المتكررة لجنود الإسلام بالمحافظة على الأنفس ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، وينهاهم في حزم عن إتلاف الزرع، وعن قطع الأشجار، وينهاهم كذلك عن قتل الضعاف من الذرية والنساء، والرجال الذين ليس لهم رأي في الحرب ولم يشتركوا فيها، ومن ذلك قوله في إحدى وصاياه لهم: «انطلقوا باسم الله تعالى وعلى بركة الله: **لا تقتلوا شيخًا فانيًا، ولا طفلاً، ولا امرأة، ولا تغلو، وضموا غنائكم وأصلحوا وأحسنوا إن الله يحب المحسنين**».

وفي وصية أخرى يقول عليه الصلاة والسلام: «**سيروا باسم الله، في سبيل الله تعالى، وقاتلوا أعداء الله، ولا تغلوا ولا تخونوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدًا**».

ويقول عليه الصلاة والسلام لخالد بن الوليد: «**لا تقتل ذرية ولا عسيفًا**» (عسيفًا: أي عاملاً). يلاحظ ما يرمى إليه من المحافظة على العمال؛ لأنهم جيش التنمية الاقتصادية والاجتماعية. وقد وصل إليه بيان ظهر منه قتل بعض الأطفال في معركة فقام خطيبًا في جنوده قائلاً: «**ما بال أقوام تجاوز بهم القتل حتى قتلوا الذرية؟! ألا لا تقتلوا الذرية.. ألا لا تقتلوا الذرية**».

اسمع معي أيها القارئ الكريم هذا الدعاء الذي كان يفتتح به سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم المعركة:

«**اللهم إنَّا عبادك، وهم عبادك، نواصينا ونواصيهم بيدك، اهزمهم وانصرنا عليهم**» إنه يطلب من الله سبحانه وتعالى نصرًا له ولجنوده؛ لأنهم

مسالمون لا يبغون الشر وأعداؤهم ما جاءوهم إلا قاصدين الشر، وباغين للفساد، ومن هذه الوصايا النبوية المتكررة يتبين أن الحرب المحمدية، حرب طاهرة زكية يستعمل فيها السلاح كما يستعمل الطبيب النطاسي المبضع يستأصل به أم القيح من الجرح ليطهر الجسد من الصديد، ويخلصه من الأورام الخبيثة والأمراض المستعصية والداء العضال، ويتمكن من تجريع صاحبه الدواء الناجع، لتعود إليه صحته وسلامته، وينعم بحياة مطمئنة فيها الرغد وفيها الهناء والسعادة. فالحرب ضد العدوان قصاص من المعتدين المصممين على العدوان، والمصرين على الغدر والعازمين عزمًا أكيدًا على الفساد في الأرض، وصدق الله العظيم حيث يقول:

﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ١٧٩] .

ولهذا فهو شدد في النهي عن قتل الأطفال والنساء والشيوخ؛ لأنهم لم يقترفوا ذنوب الحرب، وليس لديهم إصرار على إلحاق الضرر بالمسلمين.

حدثوني بربكم هل قرأتم أو سمعتم أو عرفتم حربًا على هذا القدر من النظافة والطهارة والسمو؟

سادسًا: التمسك بالفضيلة وإن جافاها العدو:

يتمسك سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم بالفضيلة تصدر عنها كل أقواله، وأفعاله، ومواقفه في الحرب، وتُحلي جميع معاملاته للعدو كالآتي:

١ - فهو لا يقاتل إلا من حمل السيف فقط، ويأمر جنوده بالعفة التي لا يحدها حد.. والعفة التي ترقى بصاحبها إلى مستوى الملائكة، فلا يعرف الجندي المسلم الإسفاف أو التردي إلى حضيض الحيوانية، ولا يقبل أن يكون وحشًا ضاريًا إنما هو يمارس الحرب هاديًا مهديًا، متأسيًا بنبيه ورسوله الهادي إلى صراط مستقيم، حتى إذا مات ذهب إلى الله راضيًا مرضيًا. إن حرب سيدنا

محمد ﷺ حرب نبوة وليست حرب غشامة أو طغيان تعمل فيها أحكام الفضيلة، فلا تستباح النفس إذا ظهر ما يؤول على أنه جنوح إلى السلم والموادعة ولا ينتهك عرض، ولا تهتك فضيلة.

٢- إن سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم بعث معلمًا، قال عليه الصلاة والسلام: «إنما بعثت معلمًا» وعلمه وتعليمه ليسا قاصرين على السلم فقط، وإنما هو معلم للناس في الحرب، كما هو معلم في السلم. وعلى ذلك فإن له هديًا في الحرب يعلمه للناس كما أن له هديًا في السلم يعلمه للناس أيضًا .

فهو في حروبه التي خاضها كان يعلم الناس سلوكيات الحرب العفيفة، حيث يتقيد حضرته بمثلها الرفيعة.

وهذا ينسجم مع طبيعة الحرب التي يشنها خاتم الأنبياء والمرسلين تقع بدافع دعم الفضيلة ودفع الرذيلة، وعلى ذلك فليس من المعقول أن يكون هذا النوع من الحروب باعثه الدفاع عن الفضيلة، ثم تنتهك فيها الحرمات وتؤتى فيها وبه المنكرات!!

وسيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم متمسك بالفضيلة يتحلى بها هو وجنوده الأبرار وإن بدى من العدو أنه لا يقيم لهذه الفضيلة وزنًا ولا يعمل لها حسابًا، فكثيرًا ما تنكر العدو للأخلاق في معاملة الجندي المسلم سواء في حالة قتله أو في حالة أسره.

ففي حالة قتله كان يمثل به ويشوه جسده ببتر أعضاء منه، بينما معلم الناس الفضيلة ﷺ ينهى جنوده عن التمثيل بالعدو في قوله: «إياكم والمُثلة».

وحدث أن قتل أعداؤه عمه الحمزة بن عبد المطلب وهو من هو في قرابته منه كشقيق لوالده وأخ له في الرضاع، لكنه لم يمثل بأحد منهم انتقامًا ولم

يحدث بعد ذلك أن فعل بالرغم من أنه انفعل بغضب شديد عندما رأى عمه على هذه الصورة، وقد مَثَّلَ به الكفار التمثيل البشع ببقر بطنه، ونزع كبده التي لاكتها هند بنت عتبة.

وفي معاملة الأسرى تتجلى أخلاق النبي الكريم عليه الصلاة والسلام، فبينما نرى الأعداء يقتلونهم أو يتركونهم يموتون جوعًا، فإن أدب نبي الله محمد ﷺ يسوقه إلى إطعام الأسير، وحسن معاملته، تنفيذًا للآية الشريفة: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الإنسان: ٨].

ألم أقل لكم: إن سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم يعلم الناس السلوك الحسن في السلم والحرب؟

إن العالم الذي يدعي التحضر، لم يعرف كيف يتعامل حضاريًا مع الأسير إلا في النصف الأول من القرن العشرين في معاهدة جنيف التي تضمنت حقوق الأسرى وأحكام معاملاتهم، ومع ذلك لم تصل هذه القواعد إلى مستوى ما شرَّعه سيدنا رسول الله ﷺ من قواعد معاملة أسرى الحرب، ومن العجيب أن هذه المعاهدة التي تعددت مخالفة أحكامها، ومن هذه المخالفات في عمق أوروبا في التسعينيات من القرن العشرين في البوسنة والهرسك أثناء الحرب العرقية التي شهدت العمليات الإجرامية التي قام بها مجرمو الحرب من الصِّرب وهي تعد سُبَّة في جبين الإنسان المعاصر، وبقعة سوداء على ثوب الحضارة الغربية مهما حاولوا إزالتها بمحاكمة مرتكبيها أمام محكمة العدل الدولية كمجرمي حرب.

وتلاها في بداية القرن الواحد والعشرين ما يشهده العالم من حرب فاجرة تشنها الصهيونية باتفاق وتنسيق بينها وبين الولايات المتحدة الأمريكية عن طريق كل من المجرم شارون رئيس وزراء إسرائيل وجورج بوش رئيس الولايات المتحدة من قتل النساء والأطفال والشيوخ والتمثيل بهم مع هدم

المنازل، ونسف البنية التحتية والفوقية على أرض فلسطين العربية، والتنكر لكل قواعد وأحكام القانون الدولي، ونقض جميع الاتفاقات بين الكيان الصهيوني والقيادة الفلسطينية.

وكل هذه الجرائم البشعة يرتكبها شارون بعصابة لصوص لا تصدق عليها كلمة جيش على مرأى العالم ومسمعه. هذا العالم الذي يخشى بطش وسطوة الولايات المتحدة الأمريكية التي بلغت جرأتها أن قامت بتصنيف العالم إلى إرهابيين ودول مساعدة للإرهابيين ودول تحارب الإرهاب، وهي تعد العقوبة الرادعة لكل من يتعاون مع الإرهاب وتهدده بالويل والثبور وسوء المصير، وكل هذه التقسيمات تستقل هي بها وهي وحدها التي تعرف الإرهاب على هواها.

وبالمعايير التي تخترعها هي وحدها تقيس سلوك الشعوب، ومن هذا المنطلق فإنها أعطت لدولة إسرائيل دولة الإرهاب الحق في إبادة الشعب الفلسطيني وجنود المقاومة الفلسطينية؛ لأن المقاومة الفلسطينية في نظرها منظمات إرهابية، وراحت الولايات المتحدة ومعها الصهاينة الخبثاء والحاقدون على الإسلام من حكام الغرب ومفكريه، يصفون الإسلام بأنه يصنع الإرهابيين، ويصف القتلى منهم بأنهم شهداء، ويكفي في الرد عليهم ما سبق من عرض لأنباء سيدنا رسول الله ﷺ ونضيف إلى ذلك ما يأتي:

إنَّ سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم يأخذ بيد بني الإنسان ليعلمهم كيف يكونون بشراً أسوياء فيحررهم من شهوات الانتقام ويشرع لهم قواعد أخلاقية تميزهم عن الوحوش الضارية، وتسمو بهم فوق البهيمية الحمقاء فيهديهم بسلوكه مع الأسرى لمكارم الأخلاق، بالسيطرة على نوازعهم السلبية، وهي في لحظة لا يكون هناك نشاط في الكيان الإنساني لغيرها.. هي لحظة القتال التي لا ينصت الإنسان إلا لها، ولا يذعن لمشورة غير مشورتها إلا

وهي القسوة كل القسوة، والغلظة كل الغلظة في معاملة من هو مصر على قتله، ومصمم على إزهاق روحه، في هذه اللحظة، يوقظ سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم ما هو كامن مختبئ من نبيل الخلق، وجميل الخصال، وأسماها الرحمة.. فيجعلها الملكة، ويوليها السيطرة على هذا الكيان الغاضب الثائر فتنساب بردًا وسلامًا على الأسير لتنام فيه صورة الوحش وتستيقظ فيه قيمة الإنسان. فسبحان من علم رسول الإنسانية قيمة الإنسان، اللهم صلِّ وسلم وبارك على أشرف الخلق سيدنا محمد وعلى آله وصحبه .

روى أبو داود في كتاب الأدب - الحذر من الناس رقم ٤٢١٩، والإمام أحمد ٢١٤٥٤، أنه في أيام صلح الحديبية الذي كان بين سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم والمشركين أصابت قريشًا ضائقة وأزمة طاحنة، فأرسل عليه الصلاة والسلام إلى أبي سفيان بن حرب زعيم المشركين في إبان ذلك خمسمائة دينار ليشتري قمحًا يستطيع به أن يفرج عنهم هذه الأزمة.

وبذلك يكون سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم قد سَدَّ حاجتهم، وأطعم المعوذين منهم، وهم مشركون، وكان بعض المسلمين يمتنع عن إعانة الفقراء من المشركين، ومن أهل الكتاب إذا ما تعرضوا لظروف تجعلهم في حاجة شديدة إلى المال، وذلك معاملة منهم لهم بالمثل ومحتجين أيضًا بأن فقراء المسلمين أولى منهم بهذه المعونة، وكذلك لحملهم على الدخول في الإسلام، على اعتبار أنه دين العزة والكرامة.

وكان سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وسلم ينهي عن التصدق إلا على أهل الإسلام فقط دون غيرهم، فنزلت الآية: ﴿لَيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلأَنفُسِكُمْ وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللَّهِ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٧٢] .

وبهذا أصبحت الصدقة واجبًا إذا أوجد سببها، ووجدت الحاجة إلى العطاء من غير نظر إلى الموضع الذي يستحقها، فإنك تكرم إنسانيته لا يهوديته ولا نصرانيته، ولا إشراكه، أي أن الصدقة تسوغ على غير المسلم، بل تجب إذا غير المسلم في حاجة شديدة ويخشى عليه إن لم يقدم له العطاء الذي ينقذه. وهذا ما قرره فضيلة الإمام محمد أبو زهرة في تفسيره للآية.

فسبحان من عَلَّم رسول الإنسانية قيمة الإنسان.. اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على أشرف الخلق سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

سابعًا: المحافظة على حقوق الإنسان وكرامته:

إنَّ مما تتميز به حرب أشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم هو مراعاته لإنسانية الإنسان، ومحافظته على كرامته حيًا كان أو ميتًا، بل إن هذه العناية تتجلى مضيئة في معاملة الموتى من جنود العدو، وإنه ليسمو ويسمو فوق المشاعر التي تحرك الإنسان العادي ليتربع على قمة تخلع الرقاب، ولا تصل إليها، وتعجز الأبصار عن متابعتها.

لقد مدحه الإمام البوصيري ، ذاكرًا ما وصل إليه من منزل أنزله الله في ليلة الإسراء فقال:

ما زلت ترقى إلى أن نلت منزلة ... من قاب قوسين لم تدرك ولم ترم

ومدحه شوقي في نهج البردة في نفس المقام فقال:

حتى بلغت سماء لا يطار لها ... على جناح ولا يسعى على قدم

وقيل كل نبي عند رتبته ... ويا محمد «هذا العرش» فاستلم

وعن أبي إبراهيم عبد الله بن أبي أوفى رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ في بعض أيامه التي لقي فيها العدو انتظر حتى مالت الشمس قام فيهم فقال: «ياأيها الناس لا تتمنوا لقاء العدو، واسألوا الله العافية، فإذا لقيتموه فاثبتوا» «فاصبروا» «واعلموا

أن الجنة تحت ظلال السيوف»، ثم قال النبي ﷺ: «اللهم منزل الكتاب، ومجري السحاب، وهازم الأحزاب، اهزمهم وانصرنا عليهم» [متفق عليه].

وفي هذا المقام - معاملته للحربيين من أعدائه - بأي عبارة ثناء يستطيع من يتابعه أن يقدر هذه المعاملة قدرها؟! فمهما أتيح له تملك ناصية البيان، والإمساك بزمام اللغة، لن يستطيع أن يوفيه حقه إلا أن يسعفه إيمانه، فيلجأ إلى الله عز وجل ليسعفه بكلمات يلقيها بين يديه عليه الصلاة والسلام، تحمل هذا التقدير الذي افتقد مُكْنَة التعبير عنه، ويمده بالعبارة التي تمتلئ حروفها برحيق الثناء فيجد وجدانه يعتمل بقول الحق عز وجل:

﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤].

يردد هذه الآية بين يديه عليه الصلاة والسلام، وهو متربع على هذه القمة الأخلاقية السامية كل من يتابعه، وهو يتعامل مع الحربيين من جنود الأعداء أحياءً كانوا أو قتلى، وهو يشعر أن الله عز وجل قد تولى بذاته الثناء على حبيبه ومصطفاه أشرف الخلق سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، فتحمل عنه ما لم يستطع حمله، ويعود إلى نفسه قائلاً مع الشاعر:

شخصية مدح الرحمن صاحبها
أظنها في غنى عن مدح إنسان

لقد بدأت معاملته ﷺ للحربيين تظهر في احترام إنسانيتهم والمحافظة على كرامتهم ودستوره في ذلك قول الحق عز وجل:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠].

وإن سيدنا رسول الله ﷺ وهو يعامل الحربيّ من جنود أعدائه يجرده من كل ميوله ونزعاته، ولا يبقى على شيء سوى كرامته يحفظها عليه حيًا كان أو ميتًا، ويتم ذلك على الوجه التالي:

١- الجريح:

كان ﷺ ينهى عن الإجهاز على الجريح، ويأمر بعلاجه، وتخليصه من آلام جراحه، والرحمة به، والشفقة عليه؛ إذ أضعفه الجرح، وفقد المقاومة، وذلك لأن الحكمة وراء القتال ليس إلا إضعاف القوة وكسر المقاومة، وليست الانتقام والتشفي، فالإسلام ينزه المسلم عن هاتين الخصلتين.

٢- معاملة الأسرى:

تجلت مكارم الأخلاق المحمدية في معاملته عليه الصلاة والسلام للأسرى، فالسيطرة والسلطان في هذه المعاملة لحرصه على تبليغ الدعوة الإسلامية وتأدية الرسالة التي بعثه الله بها رحمة للعالمين، فهو لا يسعى إلى تحقيق أمجاد عسكرية براقة، أو بناء ملك جائر ظالم يبني عرشه بجماجم الموتى وأشلاء القتلى، إنما سعيه كله بهدف تحقيق آداب النبوة وإعلاء كلمة الدين في النفوس، وفي جنبات القلوب وحنايا الصدور لتكون واقعًا ملموسًا على ظهر الأرض منارات تهتدي بها المسيرة الإنسانية من ضلال، وتكثر من قلة، وتغني بها من فقر، وتسعد بها من شقاء، وتحيا بها حياة السعادة والهناء. فقد كان عليه الصلاة والسلام رفيقًا بأسرى الحرب من أعدائه يحسن معاملتهم، ويأسو جراحهم، ويحض الصحابة على المحافظة على كرامتهم، ويشعرهم دائمًا بأنهم ينعمون بالعدالة الإسلامية والرحمة المحمدية.

وقد ظهرت هذه الروح المحمدية في معاملته لأسرى بدر، فأنزلهم بيوت الأنصار، ولم يخصص لهم معسكرًا يقذف بهم فيه يلقون المعاملة الخشنة من الحراس، فأصبحوا وكأنهم ضيوف في بيوت ضيافة وليسوا أسرى في زنزانات الأسر المظلمة، وتلقوا في بيوت الضيافة ما يتلقاه الضيوف من حفاوة وتكريم، ينفذ فيهم الأنصار وصية حبيب الله عليه الصلاة والسلام التي قالها لهم:

«استوصوا بالأسرى خيراً» فكان هؤلاء القوم من الأنصار على عادتهم يؤثرون هؤلاء الأسرى على أنفسهم وعلى أولادهم بطيب الطعام؛ طلبًا لرضاه عليه الصلاة والسلام الذي هو من رضا الله. وهذا السمو الأخلاقي من جانب سيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم والذي نجح في طبعه على وجدان أصحابه وجنوده ثمرة للجهاد الأكبر الذي نوه عنه وعلمه لهم عندما قال لهم: «رجعتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر» وعلمهم أن الجهاد الأكبر هو جهاد النفس بضبطها على مكارم الأخلاق، وسنِّي الخصال.

فبانتهاء الأسرى تتم في إطار رسمه الله سبحانه وتعالى في القرآن الكريم كالآتي:

١- إنَّ جيش الإسلام لا يتسنى له أن يأسر أحداً من جنود العدو إلا بشرط أوضحه القرآن الكريم، هو أن يثخن في الأرض، ويعمل السلاح في أجساد الجنود، ويحدث بها من الجراح ما يثقلها ويفقدها القدرة على مواصلة القتال، فإن تم له ذلك فبها، وإلا واصل القتال حتى يحقق هذه النتيجة، وعندئذ يأسر من جند العدو كما يشاء، قال تعالى:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧].

٢- الأسير في الإسلام تنحصر معاملته في وجهين اثنين، الأول: المن، وهو إطلاق سراحه بغير فداء.

الثاني: الفداء: وذلك بإطلاق سراحه بمقابل مالي، وهذا ما يحكم به الله عز وجل في سورة محمد:

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد: ٤].

والفداء يتم في صورتين:

١- إما أن يكون بالمال يقدمه الأسير فداء لنفسه .

٢- وإما أن يكون أسير بأسير.

أما إذا كان فقيراً، ولا مال له: فإن الإسلام يأمر بتسريحه من باب العفو والصفح الذين تحلى بهما سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وحَلَّى بهما المسلمين من بعده. وهما قلادتان مستخرجتان من قوله سبحانه وتعالى:

﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَإِنَّ السَّاعَةَ لآتِيَةٌ فَاصْفَحِ الصَّفْحَ الْجَمِيلَ﴾ [الحجر: ٨٥] .

﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩] .

٣- العفو في يوم الفتح والنصر المبين:

العشر الأواخر من شهر رمضان سنة ٩ هجرية، تكن في أحشائها ليلة القدر بما يستودعها الله سبحانه وتعالى من أسرار وأنوار وإشراقات، وبما تعد به العوالم كلها الظاهر فيها والباطن من سلام وبركات، وبما تحمل أيامها المباركة لكل الناس من روح وريحان، ومن تجليات الرحيم الرحمن. وأشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم يتقدم موكب الفتح بالكتيبة الخضراء ووجهه الشريف يسطع بالنور، يتغلب على ضوء الشمس بالنهار، وعلى نور القمر بالليل، لا يرى فيهما إلا راكعًا ساجدًا يسبح بحمد الله، أو داعيًا لله سبحانه أن يُعلي شأن هذا الدين، وأن يهدي به الناس أجمعين.

هذا هو الحبيب قد ظهرت على جبينه مقدمات أنوار العفو الشامل عندما حدثته أم المؤمنين أم سلمة عن قدوم رجلين من ذوي قرابته القريبة هما: أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعبد الله بن أبي أمية بن المغيرة ابن عمته

وصهره، واستأذنت لهما في الدخول عليه فأبى قائلاً: أما ابن عمي فهتك عرضي، وأما ابن عمتي وصهري فقد قال ما قال بمكة: كان قد قال له: والله لا آمنت بك حتى تتخذ سُلَّمًا إلى السماء فتعرج فيه وأنا أنظر ثم تأتي بصك وأربعة من الملائكة يشهدون بأن الله تعالى أرسلك.

وأصر سيدنا رسول الله ﷺ على عدم الإذن لهما، فلما علما بذلك، قال أبو سفيان مهددًا إياه عليه الصلاة والسلام بما لا يرضاه لمن هو أكثر عداوته له منه إذ هدده قائلاً: «والله ليأذننَّ لي أو لآخذنَّ بنيّ هذا ثم لنذهبنَّ في الأرض، ثم نموت عطشًا وجوعًا».

عند ذلك مسَّ كلامه شغاف قلب النبي الكريم الرءوف فَرَّقَ له وآذن له، وواصل نبي الرحمة السير إلى مكة المكرمة ليفتحها باسم الله وعلى بركة الله تستقبل موكب الإيمان إلى الأبد لا يعبد فيها غير الله سبحانه وتعالى.

دخوله صلى الله عليه وسلم مكة المكرمة:

دخل سيدنا رسول الله ﷺ مكة وكأنه يؤدي شعائر الحج، فلم تبد عليه أية أمارة على أنه يغزوها، وإنما الذي بدى عليه واضحًا خشوع جلل وجهه الشريف بالأنوار، وتبتل لله سبحانه يفيح شذاه من بين شفتيه وسكينة تملأ قلبه، وتنتقل منه إلى جنوده المؤمنين، وينتقل معها الخشوع لله، والخضوع لأوامر قائدهم الحبيب أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ وهم على هذه الحالة الروحانية المتجلية بالأمن والسلام، قال الصحابي الجليل سعد بن عبادة قائد كتيبة الأنصار: «اليوم يوم الملحمة!! اليوم تستحل الحرمات»، وهمهم الصحابة من قريش باحتجاج مؤدب بثوه للنبي ﷺ فقال: «بل اليوم يوم تعظم فيه، وتعز فيه الكعبة الشريفة، اليوم أعز الله فيه قريشًا»، وأمر بنزع الراية من سعد بن عبادة وتسليمها لابنه قيس بن سعد.

استقبل نهـر العفو النبوي، في هذا اليوم رجلين كانـا من ألد أعداء سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم، ثم صار بهذا العفو من أخلص المحببين له عليه الصلاة والسلام.

هذان الرجلان اللذان نعـما بعفوه عليـه الصلاة والسلام هما صـفوان بن أمية، وعكرمـة بن أبي جهل: أصرا على المقـاومة فاشتبكا مع خـالد بن الوليد وصـحبـه وأمطراهـم بوابل من النبـل. فلما تأكـدا من هزيمتـهم فـقررا الفـرار قاصدين البحر تخلصًا من الإقامة بمكة تحت سلطان نبي الله ورسوله ﷺ .

لكن هيهات.. هيهات!! لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم.

وقد رحمهم الله فعلاً.

أما صفوان فـإن له صديقًا من الصحابة هو عمـير بن وهب قال: يارسول الله إن صفوان بن أمـية سيد قومه، وقـد خرج هاربًا ليقذف نفسـه في البحر، فقال له سيدنا رسول الله ﷺ : هو آمن، قال ابن وهب يارسول الله فأعطني آية يعـرف بها أمانك، فـأعطاه رسول اللـه ﷺ عمامـته التي دخل بهـا مكة المكرمة، فلما أدرك عمير صفـوان بشره بأمان سيدنا رسول الله ﷺ له، فلم يصدق حتى مثل بين يديه عليه الصلاة والسلام فأمنه، فطلب منه مهلة شهرين ليعلن إسلامه فأعطاه مهلة أربعة أشهر.

وأمَّـا عكرمة بن أبي جـهل فمن المعـلوم أنه يحمل رصـيدًا من العـداوة بين ضلوعـه لسيـدنا رسول الله ﷺ . هـذا الرصيـد الذي أوصله إلى يأس تام من عفوه عنه ففر إلى اليمن، فجـاءت أم حكيم زوجته إلى سيدنا رسول الله ﷺ ، فأسلمت، وطلبت الأمان لعكرمـة فمنحه الأمان، فلحقت به في اليـمن، وأخبرته بأمان رسول الله ﷺ له، فجاء إلى مكة ومَثُلَ بين يديه وأسلم. هذا الفيض من العفو الذي شمل هذين الرجلين لا أحد يستطيعـه إلا أشرف الخلق سيدنا محمد ﷺ ، ذلك لأن هذين الرجلين تمسكـا بالعناد ولجَا في الخـصـومة لآخـر لحظة، وموصـوفان بالأنفة، ولا يـخلوان من كراهية مـوروثة لسيـدنا رسول الله ﷺ

فيكفي أن عكرمة هو ابن أبي جهل عمرو بن هشام الذي ناصبه العداء حتى قتل يوم بدر، وإن الاثنين صفوان وعكرمة ظلا يضربان جنود الإسلام بالنبال لآخر لحظة، فيكون من الصعب معاملتهما معاملة حسنة، لكنه رسول الله، رحمة الله للعالمين، وهو الذي قال في حق المعاندين من قريش في يوم الطائف.. لعل الله يخرج من أصلابهم من يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله .

وها هو الأفق ينشق عن عكرمة بن أبي جهل يرق قلبه للإسلام لتكتمل إجابة الله سبحانه وتعالى لدعوته عليه الصلاة والسلام.. فكأنه في يوم الطائف قد انطوى له الزمان فرأى ما يراه الآن من هذه الإجابة في شخص كل من خالد بن الوليد وعكرمة بن أبي جهل الذي ستثبت الأيام صدق إسلامه في مواقع مشهورة على أرض الشام وفارس وكسبت صفوف المسلمين بعفوه (أي بأخلاقه) أكثر ما كسبت بالسيف.. وهذا ما لخصه الرسول ﷺ في قوله: «أمرت باللين والسيف، فوجدت اللين أقطع من السيف».

العفو الشامل والأمان الأبدي:

قلب سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم في يوم الفتح أصبح معينًا صافيًا يتدفق منه العفو، ليغسل قلوب الذين أخطأوا في حقه من الخوف والوجل، ويهيئ هذه القلوب لتلقي نور الإيمان فينخرطون في صفوف المسلمين.

نظر إلى الواقفين أمامه في صفوف مطأطأي الرءوس قلوبهم واجفة، وأبصارهم خاشعة، يذلهم أمامه شعور بالذنب، من أثر ما فعلوا به حيث عذبوا أصحابه، وأهانوه، وطردوه من مكة وطنه الحبيب، وأحب بلاد الله إليه، وقطعوا رحمه وحاصروه مع بني هاشم في شعب أبي طالب، ومنعوا البيع لهم والشراء منهم، حتى مات أطفالهم جوعًا.. وأغروا به السفهاء و الغلمان في يوم الطائف، وحاولوا منعه من دخول مكة يوم عاد إليها من رحلة

الطائف، وألقوا عليه فرث الناقة، وصبوا أمامه نار أحقادهم، وسخروا منه، ومن أصحابه، وآذوه في نفسه وفي أتباعه، واتهموه بالجنون والكذب وهو فيهم الصادق الأمين.. فلما هاجر إلى المدينة لم يتركوه بل حاربوه وحاولوا قتله، وكسروا رباعيته، وأسالوا دمه، ووقفوا أمام دعوته بالمرصاد، كل هذا وهو يحمل لهم في قلبه حرصًا على هداهم، وتمسكًا بقرابتهم، وعلى يديه الهدى والنور وأسباب السعادة في الدارين.

واليوم قد عاد إلى مكة يحيط به رجال يتنافسون على تنفيذ أوامره، وفرسان يفرحون بتحقيق رغبة له تبدو إشارة منه بطلبها، السيوف والرماح والسهام، والخيل والركاب كل ذلك قوة في لمح البصر تسحقهم لو أنه أشار بإصبع واحدة لرجاله أن يفعلوا.

كل ذلك جعلهم يطرقون في وجوم.. وذهول ينتظرون ما هو مقدر لهم من مصير، وإذا بسيدنا رسول الله صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم يقطع عليهم صمتهم ويخرجهم من هذا الوجوم، وهذا الاضطراب النفسي فينبهون على سؤال أصدره لهم: «ما تظنون أني فاعل بكم؟».

فردوا جميعًا بإجابة واحدة، وكأنهم كانوا قد أعدوها سويًا قالوا: «أخ كريم وابن أخ كريم». فقال لهم وكأنه يعد هذا الكلام عن سابق علم بهذا الموقف: «إني أقول لكم كما قال يوسف لإخوته: لا تثريب عليكم اليوم يغفر الله لكم، اذهبوا فأنتم الطلقاء».

ونقشت هذه الكلمات على هام الزمان تتناقلها الأجيال تلو الأجيال، وسُطِّرَت على جبين الأبد، لتتلقى الإنسانية منها دروس النبوة والرسالة تحيا بها المثل العليا، والقيم الرفيعة، وتعرف من حكمتها طريق السعادة، وتفوز بها بالفلاح والنجاح على مدى الزمن.

وليس هذا في مُكْنَة أحد من البشر غير محمد بن عبد الله ﷺ أشرف من وطئت قدماه الأرض وأعلى من تجاوزت هامته السموات السبع، وهو الذي فرح به الملأ الأعلى، واحتفل به الله ذو الجلال والإكرام.

لقد أحيا نفوس قومه بهذا العفو بعد أن ماتوا وأسعدهم بعد أن عشش في قلوبهم الشقاء، وفتح على أغصانهم زهور هذا الدين، فما لبثوا أن انتشروا في الأرض، ونشروا معهم أريج هذه الزهور، ودخل الناس في دين الله أفواجًا.. وعاشت الإنسانية أيام أمجادها.. وسنوات رفعتها.. وسمعت جموعهم كلمة الله الأزلية الأبدية، التي تحمل أجمل البُشْرَيَات، وأضواء الآمال.. وأسعد الحياة

﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

صدقت أيها القارئ: إن الحرب في الإسلام حرب إصلاح لا حرب إبادة، وإنها حرب هداية وليست حرب انتقام.

معاملته لقتلى الحربيين:

١- المعلوم عن سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم أنه يكرم الإنسان حيًا وميتًا، الإنسان مكرم في موته كما هو مكرم في حياته؛ لأنه الإنسان. وموقف النبي ﷺ هذا نابع من القرآن الكريم الذي هو خلقه العظيم، والذي جاء في تكريمه في آية من آياته في:

﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ [الإسراء: ٧٠].

وهناك واقعة من وقائع حياة سيدنا رسول الله ﷺ تحكي أنه كان جالسًا مع أصحابه فرأوا جنازة محمولة على أكتاف الناس، فقام سيدنا رسول

الله ﷺ تحية لها، فقال الصحابة: «إنه يهودي.. يارسول الله» فرد عليهم قائلاً: «أو ليس إنسانًا؟!» وعن نفس المعنى صدر أمره للمسلمين يوم بدر بحفر القليب، ودفن قتلى الكفار فيه، تكريمًا لإنسانيتهم وحتى لا تتعرض جثثهم لنهش الوحوش والنسور.

والغريب العجيب أنه بعد أن دفن قتلى بدر من المشركين وقف على القليب، وناداهم اسمًا اسمًا: «ياعقبة ابن أبي معيط، ياشيبة بن ربيعة، ياعتبة ابن ربيعة، يا أبا جهل عمرو بن هشام، هل وجدتم ما وعدكم ربي حقًا، فقد وجدت ما وعدني ربي حقًا، فقال له عمر بن الخطاب ﷺ يارسول الله أتخاطب جثثًا قد تجيفت؟ فقال له: والله إنهم لأسمع بي منكم، ولكنهم لا يتكلمون».

٢- وهذا بيان من رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم أعلنه علي الناس يوم الفتح الأكبر نقلته من كتاب «حياة محمد» للأستاذ الدكتور محمد حسين هيكل رحمه الله رحمة واسعة، الطبعة التاسعة، مكتبة النهضة المصرية ١٩٦٥م، قال الدكتور هيكل في ص ٤٢٥:

«وفي غداة يوم الفتح عثر خزاعة على رجل من هذيل "خزاعة وهذيل قبيلتان من قبائل العرب كانتا في حالة حرب" فقتلوه وهو مشرك، فغضب النبي ﷺ وقام في الناس خطيبًا فقال:

(أيها الناس إن الله حرَّم مكة يوم خلق السموات والأرض، فهي حرام من حرام من حرام، إلى يوم القيامة، لا يحل لمسلم يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دمًا، أو يعضد فيها شجرًا، لم تحل لأحد كان قبلي، ولا تحل لأحد يكون بعدي، ولم تحل لي إلا هذه الساعة غضبًا على أهلها، ثم رجعت كحرمتها بالأمس، فليبلغ الشاهد منكم الغائب، فمن قال لكم إن رسول الله قد قاتل فيها فقولوا: إن الله قد أحلها لرسوله ولم يحلها لكم يامعشر خزاعة!! ارفعوا أيديكم عن القتل، فلقد كثر إن نفع، لقد قتلتم قتيلاً

لأدينّه!!- أي يدفع الدية لولي الدم - فمن قُتل بعد مقالي هذا فأهله بخير النظرين، إن شاءوا فدم قاتله، وإن شاءوا فعقله - أي ديته).

وبهذا الخطاب الجليل أعلن على الناس بكلماته القاطعة وعباراته الحاسمة ما يأتي:

١- حرمة مكة البلد الحرام إلى يوم القيامة، لا يسفك فيها دم، ولا يقوم على أرضها قتال، ولا تقلع شجرة.

٢- إنَّه نبي الرحمة، ونبي السلام، وإن اضطر إلى الحرب دفاعًا عن الدين والنفس، إذا ما اعتدى عليهما، فإن ذلك القتال يقع طبقًا لقواعد مستقاة من القرآن الكريم، تتضافر كلها على احترام حقوق الإنسان وكرامته، حتى وإن كان مشركًا أو كافرًا، أو على غير دين الإسلام.

٣- من حق المخالفين للدين أن يحيوا آمنين على أنفسهم في المجتمع الإسلامي ماداموا مسالمين لا يقع منهم عدوان على الدين أو الأنفس أو الأموال.

٤- المساواة التامة بين الناس أمام القانون، فقد أوجب للمشرك حقه في القصاص أو الدية في حالة الاعتداء عليه بالقتل.

٣- موقفه مما فعل خالد بن الوليد بجذيمة:

يقول الدكتور هيكل: «كان خالد بن الوليد ﷺ قد خرج إلى نخلة ليهدم " العزى" ذلك الصنم الذي كان يعبده بنو شيبان في الجاهلية، فلما هدمه توجه إلى قبيلة جذيمة، فلما رآه القوم حملوا السلاح. فأمرهم خالد أن يضعوا السلاح؛ لأن الناس قد أسلموا، ونصحهم واحد منهم بعدم تنفيذ أمر خالد؛ لأن نتيجة ذلك لن تكون إلا الأسر والقتل.

واعترض القوم عليه قائلين: «أتريد أن تسفك دماءنا، إن الناس قد أسلموا، ووضعت الحرب وأمن الناس، ومازالوا به حتى وضع سلاحه».

عند ذلك أمر بهم خالد فغلُّوا، ثم عرضهم على السيف من قتل منهم.

فلما انتهى الخبر إلى النبي ﷺ رفع يديه إلى السماء وقال:

«اللهم إني أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد».

ثم بعث إليهم علي بن أبي طالب وقال له:

«اخرج إلى هؤلاء القوم فانظر في أمرهم، واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك»، وخرج علي ومعه ما أعطاه النبي ﷺ إياه، فلما بلغ القوم دفع الدية عن الدماء، وما أصيب من أموال، حتى إذا لم يبق شيء من دم أو مال إلا أداه وأعطاهم بقية المال الذي بعث به رسول الله ﷺ احتياطًا لرسول الله مما لا يعلم». [الدكتور هيكل].

حصاد الخلق العظيم:

إن الروح الطيبة التي صدرت عنها أقوال سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم أيام الفتح المبين في مكة المكرمة، من عفو شامل غير مسبوق، وغير مكرر في التاريخ كله، ولا يناظره عفو حتى تقوم الساعة، إنْ جنى المجتمع الإسلامي هذه الثمرات الطيبة:

١ - نظر أهل مكة في هذا اليوم المضيء الذي أضاءه الخلق الجميل الذي تحلى به أشرف الخلق سيدنا محمد صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم؛ بهذا العفو الشامل الذي ظهرت بأنواره كنوز هذه الشخصية الفذة العظيمة، وأول هذه الكنوز التي اكتشفها أهل مكة أنه عليه الصلاة والسلام لا يضمر لهم شرًا، ولا يهدف إلى انتقام، وإنما يريد بهم الخير، وأنه ما دعاهم إلا إلى ما يسعدهم في الدنيا والآخرة، وأنه يكن لهم في قلبه الكبير الرحمة، والبر، وصلة الرحم، والمودة في القربى، ومن جهة أخرى فهو يعرف لمكة البلد الحرام مكانتها وقدسيتها، وأنها أحب بلاد الله إليه، فلا يقر أن يسفك فيها دم، ولا أن تقلع شجرة، وأن أهلها

أهل الحرم لا يفزعون، ولا يؤذون، ولا تقطع لهم رحم، ونظروا فوجدوا أنفسهم في هذا اليوم في قبضة سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم. ولو كان بشرًا عاديًا تحركه شهوة الانتقام وذكر ما فعلوا فيه وفي أصحابه لمزّقم بددًا، ولم يبق منهم أحدًا، لكنهم تلقوا منه هذا العفو الشامل والرحمة الواسعة، فطمأنوا، ومنحتهم الطمأنينة النور الذي أزال عن أبصارهم وبصائرهم غشاوة الجاهلية، فأقبلوا على نبي الله ﷺ زرافات ووحدانًا يعلنون إسلامهم فرحين بالدين الحنيف، وبعودتهم إلى شخصه ﷺ يحدوهم الأمل في تعويض ما فاتهم من بر الله ورحمة رسوله ﷺ وما فاتهم من حظ الجهاد لنصرة هذا الدين الذي هداهم إليه وحبّبهم فيه ما ظهر أمامهم من خُلُق النبي الكريم ﷺ فدخلوا في دين الله أفواجًا .

٢- دخول عكرمة بن أبي جهل وصفوان بن أمية الإسلام:

إن من يتتبع الأحداث السابقة ليوم الفتح، وما تركت من آثار على قلبي هذين الشخصين، من العناد والكفر، ومن الأذى الذي تعرض له سيدنا رسول الله ﷺ من أبي جهل فرعون الأمة عليه لعنة الله، وأُمية بن خلف الفرعون الثاني، لا يمكن أن يتصور أن يدخل شعاع واحد من أشعة الإسلام قلب واحد منهما. ولكن هذا العفو الذي بدا من سيدنا محمد ﷺ عنهما، ومنحهما الأمان، قد كسرت أشعته الصخرتين الصماتين اللتين سدتا قلبيهما، ومنعتا نور الهدى أن يدخلهما .

أما عكرمة فهو ابن أبي جهل لعنه الله، وهو الذي عاش عدوًا لله ولرسوله ﷺ وكيده لهذا الدين، وكيده لسيدنا رسول الله ﷺ معروف لا ينكر، وبنفس البشاعة كيد أمية بن خلف، فهما من ألد أعداء سيدنا رسول الله ﷺ ، ومع ذلك أصبح كل من عكرمة وصفوان من كرام الصحابة، وأدى كل منهما للإسلام ما شهد له بقوة الإيمان وحب سيدنا رسول الله

ﷺ ، وهما يعتبران من المشمولين بدعاء سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم يوم الطائف في قوله: «لعل الله يخرج من أصلابهم من يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله ﷺ ».

وسجل التاريخ اسم عكرمة بن أبي جهل قائداً من قادة المسلمين الذين عزَّ بهم الإسلام في حرب الشام، وكذلك سجَّلَ اسم صفوان بن أمية، وشهدت بذلك معركة اليرموك وأجنادين وغيرها.

٣- قويت شوكة المسلمين وعزَّ الإسلام، وتطهرت مكة وما حولها من الأصنام، ولبست مكة ثوب الإسلام الأخضر، وزاد جيش الإسلام وتزود بما مكَّن له من الغلبة على المشركين من قبائل هوازن وثقيف وجُشم، ونصر في معركة حنين، واكتمل النصر بدخول الطائف وإسلام مالك بن عوف النضري. وفي ذلك نزل قول الله سبحانه وتعالى:

﴿لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ ﴿٢٥﴾ ثُمَّ أَنزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنزَلَ جُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَٰلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ ﴿٢٦﴾ ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٧﴾ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَٰذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٢٥-٢٨] .

ولقد تضمنت هذه الآيات من المكاسب الروحية والعسكرية والسياسية والدينية ما يحمد الله عليها آناء الليل وأطراف النهار حتى تقوم الساعة:

أ- النصر من عند الله ؛ لأن الدين دينه، والرسول رسوله، والمؤمنون عباده، فهم ينصرون بفضل الله لا بكثرتهم، ولا بعتادهم.

ب- ألاَّ تأخذ المسلمين نشوة النصر فيركنوا إلى ذلك ويتركوا أنفسهم للتنعم وحياة الدعة، والتمتع بالحياة ناسين الرسالة التي يحملونها للبشرية تحمل لها سعادة الدنيا والآخرة.

جـ- أصبح المجتمع الإسلامي طاهراً من عناصر الشرك، فتحرر من العلاقات كلها إلا رابطة الدين وأخوة الروح، واتسم المجتمع بسمة الفضيلة، وتميز بمكارم الأخلاق، وتسيد الولاء للدين الحنيف قلوب المجتمع الإسلامي الواعي.

د- تحررت الكعبة وتطهرت تمامًا ونفت خبث الجاهلية ورجس الشرك، وأغلقت إلى الأبد في وجه المشركين، وأصبحت كالجنة محرمة على الكافرين، فلا حج لكافر أو مشرك ولا حج لغير المسلمين.

انظر معي إلى هذه الآثار الطيبة التي نتجت عن خلق واحد من أخلاق سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم، وهو العفو الحربي، عامل به أعداءه ساعة واحدة من نهار في معركة فاصلة قطعت الصلة ما بين الجاهلية وعنجهيتها، وظلماتها وبين عصره عليه الصلاة والسلام.. عصر مكارم الأخلاق!!

لقد بسط سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم على مكة رداء العفو فآمن ألد أعدائه خصومة، وأشدهم ضراوة وعناداً، وتجمع الكبير منهم والصغير، والقوي منهم والضعيف، والمرأة والرجل، والشاب فيهم والأطفال، تحت هذا الرداء الحنون يحتمون به من برد الخوف، ويتقون به بطش الحرب، وينعمون به بنعمة السلام والإسلام، وخرجوا من تحت هذا الرداء صفًا واحداً يؤذن مع سيدنا بلال بن رباح «الله أكبر، الله أكبر، أشهد أن لا إله إلا الله، أشهد أن محمداً رسول الله» يا له من أذان أيقظ الإنسانية من سباتها العميق على ضوء الفجر الصادق، فجر الإسلام!!

كلمة ختامية لهذا الفصل

أرأيت أيها القـارئ الكريم كيف كـان خُلق سيدنـا رسول الله ﷺ في الحرب؟، وعلمت معنا الإجـابة الشافية التي رددتها أم المؤمنين سيـدتنا عائشة ﵂ على سـؤال من سألهـا كيف كان خُلُـق رسول الله ﷺ فـقالت ﵂: «كان خُلُقه القرآن».

لقـد قالت أم المؤمنين حـقًا، ونطـقت صدقًـا، وجمـعت في هذه العبـارة لسيدنا رسول الله ﷺ جميع مكارم الأخلاق، ونزهته تمامًا عن كل مساوئ الأخلاق، هكذا ألهمها الله فأصابت الحق والحقيقة.

والآن وبعد أن استعرضنا بعض وقائع الحـرب التي خاضها سيدنا رسول الله ﷺ ، وتبـدّت فيـهـا مكارم أخلاقـه كـالشمس وضـحـاها تخلص إلى النتائج الآتية:

أولاً: إن سيدنا رسول الله ﷺ بعث نبـيًا ورسولاً وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيـرًا، قال الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا (٤٥) وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا (٤٦) وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ بِأَنَّ لَهُم مِّنَ اللَّهِ فَضْلاً كَبِيرًا (٤٧) وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾ [الأحزاب: ٤٥-٤٨].

وهذه السورة مدنـية، وهذه الآيات تحدد موقف سيـدنا رسول الله ﷺ من الكفار ومن المنافقين.

﴿وَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَالْمُنَافِقِينَ وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً﴾

ثانيًـا: إن الرسول ﷺ يـدعو إلى الله في السلم، ويدعـو إلى الله في الحرب، أي أنه مبلغ للإسلام عقيدة وشـريعة وأخلاقًا في السلام وفي الحرب، وكل ذلك لا يتصرف فيه من تلقـاء نفسه، وإنما هو في كل ذلك يتصرف بإذن الله عز وجل.

ثالثًا: إنَّ دستور الحرب في الإسلام تلقاه سيدنا رسول الله ﷺ وحيًا في القرآن الكريم. والدليل على ذلك أنه ظل داعيًا إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة طيلة حياته، ذلك لأن الدعوة تقوم على الحوار سلاحها الكلمة، وهدفها الإقناع، وتوليد الإيمان في القلوب، والرشد في العقول، ليتعرف الإنسان على ربه ورب السموات والأرض ومن فيهن، فيقيم الصلاة، ويؤتي الزكاة، ويصوم رمضان، ويحج البيت، ويأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر.. ويعزف على الأرض لحن السلام، وظل سيدنا رسول الله ﷺ يدعو الناس في مكة وعلى رأسه ترفرف أجنحة السلام، ويحمل في يديه كئوسًا مترعة بشراب السلام صافيًا حلو المذاق، ويتحمل أذى قومه الذي كان يتلقاه منهم مر المذاق، قبيح المنظر، في شخصه بسيطًا، وفي أصحابه مضاعفًا، وهو كلما مرَّ على نفر منهم يصْلَون على يدي قومه أشدَّ العذاب، واساهم قائلاً: «**صبراً آل ياسر صبراً، فإن موعدكم الجنة**».

ولم يرفع للحرب عصا في وجه قريش، ولم يشعل لها عوداً من القش، بل ظل صابراً ثلاثة عشر سنة، كانت طويلة شديدة الوطأة عليه وعلى أتباعه، حتى تمادى الكفار في العناد، وأخرجوه وأصحابه من مكة إلى المدينة، وصادروا أموال المؤمنين، واستولوا على دُورهم.

رابعًا: إنَّ الحرب وقعت منه عليه الصلاة والسلام بإذن الله مثل الدعوة تمامًا لقوله:

﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج: ٣٩] .

والجميل في هذا الموضوع أن هذه الآية مسبوقة بآية رقم (٣٨) يقول فيها الحق سبحانه وتعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨] .

وعلى ذلك فحرب سيدنا رسول الله ﷺ، وحرب أمته حرب دفاع وليست حرب عدوان، والدليل القوي على ذلك يسطع في الآية: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠].

إن الله لا يحب العدوان حتى من المؤمنين به، المحبين له الذين يحبهم ويؤثرهم بفضله.

خامسًا: التفرقة بين الجهاد والقتال:

فالجهاد أوسع دائرة من القتال، وهو من الجهد الذي يأخذ صور كثيرة، منها الجهد بالكلمة، ويتم بالحكمة والموعظة الحسنة، وبالموقف، وجهاد النفس، والتصدي لمن يحمل السيف من أهل الظلم والطغيان ليقاتل الصف المؤمن ويقهر الضعفاء، ويقتل النساء والأطفال، ويستولي عنوة على مال المسلمين، وعلى ذلك يكون القتال بالسيف صورة من صور الجهاد، والجهاد يكون في السلم والحرب، ولا يكون القتال إلا في الحرب، فالجهاد يكون بالكلمة، ويكون بالمال، ويكون بالجاه والسلطان، ولا يكون القتال إلا بآلة الحرب، وفي هذا يقول الحق عز وجل:

﴿فَلا تُطِعِ الْكَافِرِينَ وَجَاهِدْهُم بِهِ جِهَادًا كَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٢].

وإذن فلا ينبغي الخلط بين الجهاد والقتال، كذلك قد يكون ميدان الجهاد في داخل كيان الإنسان نفسه، وهو ما روي عن سيدنا رسول الله ﷺ أنه سماه بالجهاد الأكبر وهو جهاد النفس، وفيه يحاول الإنسان الذي ينشد الكمال التصدي لعواطفه السلبية، وقمع شهواته، وضبط هواه، ليكون موافقًا لما جاء به سيدنا رسول الله ﷺ، امتثالاً لتوجيهه الشريف: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به». فهو يتولى بالتهذيب، والتأديب، وبسياستها للإذعان لتعليم الدين الحنيف ويزكيها بالقرآن والذكر الحكيم، ويصقلها بطاعة الله وطاعة سيدنا رسول الله ﷺ ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا﴾ [الشمس: ٩].

وفي ذلك يقول الحق عز وجلّ:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [المائدة: ١٠٥].

قال البوصيري في بردة المديح:

وخالف النفس والشيطان واعصمهما
وإن هما محضاك النصح فاتهم

ولا تُطِعْ منهما خصمًا ولا حكمًا
فأنت تعرف كيد الخصم.. والحكم

كم حسّنَتْ لذة للمرء قاتلةً
من حيث لم يدر أنَّ السم في الدسم

فخالف هواها وحاذر أن تولّيه
إن الهوى ما تولَّ يصم أو يصم

وقد يكون ميدان الجهاد بيت المرأ وأسرته:

يأخذ بأيدي أهله وولده إلى طاعة الله، ويبرُّهم ويبصرهم في أمور دينهم، ويحضهم على التحلي بمكارم الأخلاق، وهو يستطيع أن يصل إلى غايته منهم إذا كان قدوة لهم.

﴿وَأْمُرْ أَهْلَكَ بِالصَّلاةِ وَاصْطَبِرْ عَلَيْهَا لا نَسْأَلُكَ رِزْقًا نَّحْنُ نَرْزُقُكَ وَالْعَاقِبَةُ لِلتَّقْوَىٰ﴾ [طه: ١٣٢].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلائِكَةٌ غِلاظٌ شِدَادٌ لاَّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وقد يكون الميدان هو المجتمع كله: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

أما القتال فله ميدان واحد حيث يلتقي فيه المؤمن بالكافر الباغي الظالم الذي تعمد استخدام آلة القتال لقتله وقهره وقهر الضعفاء من النساء والولدان والشيوخ وتغيير صورة المجتمع ونشر الخوف والإرهاب، وباختصار الاعتداء على السلام، ولم يثنه عن ذلك محاولات المؤمن نزع السلاح والجلوس على مائدة المفاوضات للصلح، ففي حالة إصرار العدو على القتال يكون قتله وقتاله فرض عين، أي يكون عبادة الله شأنه شأن الصلاة؛ لأن العدو في هذه الحالة يمارس نشاطًا إجراميًا عدوانيًا، قاصدًا بذلك قتل المسلمين، وحرمانهم من حق الحياة، وسلبهم حقوقهم المشروعة، فأصبحت مقاومة هذا العدوان فريضة على المسلمين، يقاتلون عدو الله وعدوهم حتى يتحقق الأمن لهم والسلام للعالم، وبهذه المثابة يمكن فهم آية القتال:

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]

وبهذا يتأكد في ضمير المسلم أن القتال هنا هو نوع من أنواع الجهاد، أو فرع من فروعه، باعثه رد عدوان المعتدي، وتحقيق الأمن والسلام، إذ هما ضروريان لإقامة مجتمع السعادة والرفاهية لكل الناس، فإذا جاء باغ يحرم الناس من هذا الأمن أو هذا السلام، فقتاله يكون فضيلة من أرقى الفضائل، ويكون التسليم له بأفعاله الذميمة وعدوانه الآثم رذيلة من أقبح الرذائل، ويكون حصاد المقاتل المسلم محصورًا في ثمرتين كل منهما حلوة المذاق.. النصر أو الشهادة.

وقد أوجز كل هذا المغفور له الإمام محمد أبو زهرة في كتابه «خاتم النبيين» (الجزء الثاني) تحت بند ٣٦٣ ص٥٩٦ في هذا الكتاب:

«كان لابد قبل أن نخوض في حروب النبي صلى الله تعالى عليه وسلم وأدوارها، والمعارك التي خاضها، من أن نسبق بالقول في أوصاف

حرب النبي ﷺ، فإن ذكر الحرب قد يفزع، ويرهب، فكان من الضروري أن نعرف القارئين بأنها ليست كحرب الناس تستمد أحكامها من الغلب بالظُّفْرِ والنَّابِ، وإنها حرب نبوة، تدفع إليها الفضائل الإنسانية، ويظلها الحق، والخلقَ الكريم في الباعث عليها، وفي ابتدائها، وفي سيرها، وفي الانتهاء منها، وفي معاملة المغلوبين ليتميز الخبيث من الطيب، ولكيلا يتطاول ملحد في دين الله على مقام الرسالة، ومكان الهداية، ويقع في القوم بغير الحق، ويفتري بالباطل، فنضع الحقائق بين يديه، فإن شاء استنار بها، وإن طمس الله تعالى على بصيرته فماله من هاد، ويكون كما قال الشاعر:

كناطح صخرة يومًا ليوهنها

فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

[انتهى كلام الشيخ أبو زهرة]

وبهذا يتضح للقارئ، ولأصدقاء الإسلام، ولأعدائه أن القتال في الإسلام رد لعدوان، وصد لبغي، ودرء لفساد، وصيانة لفضائل، ومقاومة لظلم، وتثبيت للقلوب والعقول بالقول الثابت في الحياة الدنيا، وحماية للضعفاء من النساء والأطفال، وذود عن القيم والفضائل والحرمات، ومحافظة على الحياة من أعداء الحياة، ونشر للواء السلام.

وإذن فالحرب في الإسلام حرب تمليها ضرورة، ويفرضها واقع سيئ يتعين التخلص منه إلى واقع مطلوب لنمو الحياة الزاهرة السعيدة للإنسان كل الإنسان، وكذلك لإحياء الفضيلة ومكارم الأخلاق.

وإذن فالحرب التي رفع لواءها سيدنا رسول الله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وصحبه وسلم، هي مرآة تتجلى فيها مكارم الأخلاق، التي يعلو بها الحق، وتزدهر بها الحياة، ويتحقق بها الاستقرار، وتشرق بها السعادة، ويسود بها الأمن، ويحب الناس بها الحياة.

وبذلك الذي سردناه في هذا الباب نكون قد رسخنا فكرة أعطيناها للقارئ عن كنز الأخلاق النبوية في السلم والحرب. هذا الكنز الذي ورثه المسلمون كل على قدر نصيبه الذي أتاحه الله له، ووفقه إليه، فأصبح به مصدر سعادة لمن تعامل معهم، وعندما امتزج بأنصبة الآخرين من إخوانه المحبين لسيدنا رسول الله ﷺ ، كون معها بحيرة نورانية يتجلجل فيها سلسبيل الأخلاق عذبًا فراتًا، فارتوت به أشجار السلام، تداعب أغصانها السماء بزهورها الفياحة، تعطر بها الآفاق، وبثماره الطيبة تغذي بها الأرواح، وبجمالها الأخاذ بأسر القلوب، ويشرح الصدر، ويطلق الألسنة بذكر الله.. تهليلاً وتسبيحًا وتحميدًا وتقديسًا ويردد هذا الموكب الرباني الجميل الساري في السماوات والأرض.

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يَسْجُدُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ وَالْجِبَالُ وَالشَّجَرُ وَالدَّوَابُّ وَكَثِيرٌ مِّنَ النَّاسِ وَكَثِيرٌ حَقَّ عَلَيْهِ الْعَذَابُ وَمَن يُهِنِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن مُّكْرِمٍ إِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ [الحج: ١٨] .

أيضًا في سورة غافر:

﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُوَرَكُمْ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَتَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ (٦٤) هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [غافر: ٦٤-٦٥] .

ولا يفوتني في هذا المقام أن أسجل على هذه الصفحات رأي أحد أعلامنا الرواد، وعلمائنا الأفذاذ، وهو المغفور له الأستاذ الدكتور محمد عبدالله دراز وهو الرأي الذي انطوت عليه رسالة دكتوراه الدولة «دستور الأخلاق في القرآن» في المدخل إلى القرآن الكريم «ترجمة محمد عبد العظيم علي، ومراجعة الدكتور السيد محمد بدوي، نشر دار القرآن بالكويت، دار آفاق الغد. ٢ شارع شريف بالقاهرة، الفصل الثالث، صفحة ٥٦ وما بعدها» حيث يؤسس فكرة الحرب في الإسلام،

والباعث إلى هذه الحرب فيقول ما نصه: «يستحيل علينا - نظرًا للأحكام العديدة النزيهة التي اتفق المستشرقون عليها- أن ننسب الباعث على الحرب إلى نفسية الرسول ﷺ، فالإجراءات الحربية في الحقيقة ليست من طبعه ولا من عاداته، بل العكس هو الصحيح؛ إذ كثيرًا ما جلب عليه تسامحه وعفوه عن المشركين لومًا من القرآن:

﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَكُونَ لَهُ أَسْرَىٰ حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [الأنفال: ٦٧] .

﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [التوبة: ٨٠] .

﴿مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَن يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا أُولِي قُرْبَىٰ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ﴾ [التوبة: ١١٣] .

فقد نقل إلينا الأثر كثيرًا من عفوه ومغفرته تجاه جرائم ارتكبت ضد شخصه أو ضد ذويه.

ولقد حاول البعض أن يعلل هذا الاتجاه الجديد (اتجاه الحرب الدفاعية) بضغط جماعة المسلمين عليه، وهم من هذا الشعب الذي يتميز بالروح الحربية كطبع أصيل فيه. ولكن العلماء الذين تعمقوا في دراسة الغريزة العربية، لا يؤيدون مثل هذا الافتراض، بل إنهم أثبتوا أن الدماء تثير الفزع في نفوس العرب، ولا سيما أعراب الصحراء، ويؤكدون أن البدو لا يحرصون على الحروب، ولكنها عندما تفرض نفسها عليهم يقبلونها بدلاً من تحمل الذل والعار، وحتى بالنسبة لعمليات الغزو التي كانت تقوم بها بعض القبائل على بعض، فإن القبائل الرُّحَّل كانت تحرص دائمًا على عدم سفك الدماء.

فلا يمكن إذن تفسير هذا التحول الجديد (التعامل بالقتال) عن طريق تحليل نفسية الشعب ولا بتحليل نفسية الرسول ﷺ، وإنما يتعين البحث عن دوافعه في حدث تاريخي، ولابد أن شيئًا ما قد حدث في تلك الفترة فأدى إلى هذا الموقف الجديد.

والواقع أن القرآن الكريم يجسد أمامنا مشهدًا مثيرًا للغاية.

والرجوع إلى النص القرآني يوضح لنا الموضوع والهدف والحدود التي يستهدفها التشريع القرآني من وراء القتال فيقول:

﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠] .

﴿فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١٩٢) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٢-١٩٣] .

﴿إِلاَّ الَّذِينَ يَصِلُونَ إِلَىٰ قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَاقٌ أَوْ جَاءُوكُمْ حَصِرَتْ صُدُورُهُمْ أَن يُقَاتِلُوكُمْ أَوْ يُقَاتِلُوا قَوْمَهُمْ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَسَلَّطَهُمْ عَلَيْكُمْ فَلَقَاتَلُوكُمْ فَإِنِ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وَأَلْقَوْا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ فَمَا جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ عَلَيْهِمْ سَبِيلاً (٩٠) سَتَجِدُونَ آخَرِينَ يُرِيدُونَ أَن يَأْمَنُوكُمْ وَيَأْمَنُوا قَوْمَهُمْ كُلَّ مَا رُدُّوا إِلَى الْفِتْنَةِ أُرْكِسُوا فِيهَا فَإِن لَّمْ يَعْتَزِلُوكُمْ وَيُلْقُوا إِلَيْكُمُ السَّلَمَ وَيَكُفُّوا أَيْدِيَهُمْ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأُوْلَئِكُمْ جَعَلْنَا لَكُمْ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا مُّبِينًا﴾ [النساء: ٩٠-٩١] .

﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ (٨) إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُم مِّن دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَىٰ إِخْرَاجِكُمْ أَن تَوَلَّوْهُمْ وَمَن يَتَوَلَّهُمْ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٨-٩]

﴿إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّم مِّنَ الْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٤] .

﴿أَلا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَوْهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣]

﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِندَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٣٦]

﴿كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِندَ اللَّهِ وَعِندَ رَسُولِهِ إِلاَّ الَّذِينَ عَاهَدتُّمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ﴾ [التوبة: ٧]

فلا نجد في أي مكان إذنًا بالبدء بالقتال، وإنما الأمر هنا محدد بموقف الخصم العدواني، والأكثر من ذلك أنه حتى بالنسبة للمشركين الذين لا يرتبطون مع المسلمين بعهود ومواثيق ويطلبون حمايتهم، نجد القرآن يطالب الرسول ﷺ بأن يبلغهم مقصدهم في أمان.

﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَّ يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦] .

فكل مسئولية الحرب إذن تقع على عاتق البادئ بها. ولكن إلى أي مدى تمتد هذه المسئوليات؟ هل هي مسئوليات جماعية؟ لقد أثبتنا في مكان آخر المبدأ القرآني الذي يتضمن أن المسئولية الجنائية والأخلاقية هي مسئولية فردية. وأن المسئولية المدنية تميل إلى الاقتراب من نفس هذه الفكرة، وشأنها شأن المسئولية العسكرية. فعندما يقول القرآن: «قَاتلوا الذين يقاتلونكم» إنما يقصد بذلك الذين يقاتلون قتالاً فعليًا ويحملون السلاح.. ما هو إذن الهدف من هذا

التشـريع؟ نعتقـد أنه وقد وضح الآن: وهو إبعاد الخطر، فـالإسلام يُدين روح التدمير وروح السيطرة.

﴿تِلْكَ الدَّارُ الآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الأَرْضِ وَلا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [القصص: ٨٣].

بل إنه لا يريد فرض «أيـديولوجية عـالمية»: ﴿وَلَوْ شَـاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَن فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٩٩].

وحتى مع افتراض أنه قد يكون هناك مـن يريد ذلك فإنه لا يستطيعه؛ لأن الرسول ﷺ ذاته لم يكن ليركن إلى إمكانيته البـشرية ويعول عليها، بعد أن أوضح له القرآن الأبعاد والحدود، لقد كان بعيدًا عن أن يُكره الضمائر ويعوق حرية العقيدة. لا إكراه في الدين :

﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

فالإسلام يقف في وجه من يعترض طريق الحرية ويعرض الناس للفتنة:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الشَّهْرِ الْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَكُفْرٌ بِهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ اللَّهِ وَالْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ الْقَتْلِ وَلا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا وَمَن يَرْتَدِدْ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَيَمُتْ وَهُوَ كَافِرٌ فَأُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٢١٧].

وتحطيم هذه العوائق هو الـهدف التحرري الذي يجـب أن يلهم المقاتلين المسلمين.

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلاَّ عَلَى الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٩٣].

﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الأنفال: ٣٩].

[انتهى كلام الدكتور محمد عبد الله دراز]

هذا هو الفهم الصحيح لطبيعة القتال ومشروعيته في الإسلام، فهو تشريع استثنائي يقتضيه دفع الضرر عن المجتمع ورد عدوان المعتدين على الأنفس والأموال والدين. وهذا أبلغ رد على المقولة الزائفة التي ذاعت في الفكر الغربي الحديث، والتي تقول: «بأن الإسلام لم ينتشر إلا بحد السيف».

الآن تسقط هذه المقولة إلى الأبد.

وفي الآونة الأخيرة ترددت نغمة مغرضة لوثت فكر الغرب، يدعي قائلها: إن الإسلام هو الدين الذي يصنع الإرهاب، ويجعل من معتنقيه إرهابيين صناعتهم التدمير، والتخريب، وهدم الحضارة، وإجبار الناس للعودة إلى الوراء، وبلغ جهل هؤلاء بحقيقة الإسلام أن قسموا العالم إلى قسمين: قسم مع الإرهاب وقسم ضد الإرهاب، وبلغ الغرور بزعيم من زعماء الغرب أنه نصَّب من نفسه ومن شعبه قائداً للحرب ضد الإرهاب، وهدَّد الشعوب الإسلامية بحرب مدمرة زاعمًا أنها هي التربة التي نبت فيها الإرهاب.

والرد على ذلك في منتهى البساطة وتحتويه مصادر الإسلام من القرآن والسُّنَّة والتي تنطق كلها بسماحة الإسلام ونصاعته ودعوته البيضاء للسلام والأمن، والاستقرار، والوئام بين الشعوب، وقد سبق إيضاح كل هذا بالتفصيل في الصفحات السابقة التي يظهر منها حرص النبي ﷺ على المحافظة على كرامة الإنسان حيًا وميتًا في حالتي السلم والحرب، هذه الكرامة التي لم تشهد مهانة واحتقاراً على مر التاريخ مثلما عانت منه على أيدي أدعياء الحضارة في شعوب الغرب، ويشهد بذلك ما حدث في البوسنة والهرسك، وكوسوفو، والصومال، والشيشان، وما يحدث الآن على أرض فلسطين مما يعد سبة في جبين قادة الشعب

الأمريكي الذين يناصرون العنصرية الفاجرة المسيطرة على مقدرات الشعب الفلسطيني عن طريق الكيان الصهيوني المسمى بإسرائيل، والسكوت الجبان من المجتمع الأوروبي، وهذا الذي سيعلق بقعة دامية على ثوب الحضارة الغربية المدّعاة إلى أن تقوم الساعة؛ لأنهم يقولون ما لا يفعلون، وينسبون إلى الإسلام ما ليس فيه وهم به متصفون، فهم يسندون إلى الإسلام الإرهاب، وهم بالإرهاب مَوْصُومون، وهم له صانعون.

وسيبقى سؤال على فم الزمان يردده جيلاً بعد جيل، من الذي قتل الأطفال، والنساء، وكبار السن، والشباب، ودمر المنشآت، وخرّب البيوت، وسمّم الزروع، وقتل الحياة وذبح السلام على أرض فلسطين في شهري مارس وأبريل سنة ٢٠٠٢م؟ وسيتلقى الإجابة كما يأتي:

إنهما شارون رأس العنصرية الفاجرة، وشريكه جورج بوش الثاني إمبراطور الإرهاب وصانعه قائد الولايات المتحدة .

وأما السؤال الثاني: الذي يردده الزمان، فهو من الذي حفظ للإنسان كرامته حيًا وميتًا، عدوًا وصديقًا، محاربًا ومسالمًا، طفلاً وشيخًا، امرأة ورجلاً، حضارة ومدنية؟

وسيتلقى الإجابة:

إنه محمد بن عبد الله ، نبي الله ، ورسول الله ، وصفي الله .

الذي وصفه بقوله: ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ [القلم: ٤] .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] .

اللهم صلِّ وسلِّم وبارك على سيدنا محمد النبي العربيّ الأمين وعلى آله وأصحابه أجمعين.

تم الجزء الأول، ويليه الجزء الثاني.

الفهرس

الموضـــــــوع	الصفحة

الفصل الأول

الموضـــــوع | الصفحة

الموضـــــوع الصفحة

الفصل الثاني

الموضـــــوع	الصفحة

